بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر الصوفي

في ضوء الكتاب والسنة

مقدمة الطبعتين الثالثة والرابعة

الحمد لله لا نحصي ثناء عليه كما أثنى على نفسه. فلـه الحمـد كمـا ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الحمد كالـذي نقـول وخـيراً ممـا نقـول ولـه الحمـد أن هدانا لحمده، وعرفنا به، ونسأله تعالى أن يرزقنا الإيمان به، والثبات على الإيمان حتى نلقاه.

والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، الذي بلّغ البلاغ المـبين، وأدى الأمانـة كاملة، وكان العبـد الكامـل لسـيده ومـولاه، والرسـول الكامـل، والنـبي المبجـل والمكرم والإمام فصلوات الله عليه وسلامه. وبعد،،،

أخي القارئ هـذه هي الطبعـة الثالثـة من (الفكـر الصـوفي) تمتـاز عن سـابقتيها بتدارك الأخطاء المطبعية واللغوية، وزيادة الفصل الخاص بالطريقة الرفاعية من صفحة 562 إلى صفحة 596. وقد نبهنا إلى منهجنا في هـذا الكتـاب في مقدمـة الطبعة الثانية.

وقد أصبح هذا الكتاب بحمد الله موسوعة ومرجعاً لكل من أراد التعرف على هذا الفكر، والإحاطة بمباحثه المتفرقة، وتصور عقائده وشـرائعه، وطرائـق أهلـه في الفكر. وكذلك الرد على معظم مـا انتحلـوه من عقيـدة وشـريعة. وبهـذا تيسـير -بحمد اللـه- على طلاب العلم معرفـة الفكـر الصـوفي في يسـر وسـهولة، وتعلم طريقة الـرد على زنـدقتهم وخرافـاتهم ودجلهم، ومعرفـة أمهـات الكتب عنـدهم، وأساطين فكرهم، وكيف تطـورت العقيـدة والشـريعة الصـوفية. ونرجـو بهـذا أن نكون قد مهدنا الطريق إلى القضاء على هذا الفكـر المنحـرف، وفتحنـا الطريـق أمام ناشئة المسلمين إلى الاعتصام بالكتاب والسـنة، وإزالـة عقبـة كـأداء كـانت تحول بينهم وبين ذلك. والله سبحانه هو المسئول أن يجعـل هـذا خالصـاً لوجهـه، وأن يكتب له القبول في الأرض، والرفعة مع الأعمـال الصـالحة إلى السـماء إنـه هو السميع العليم.

وكتبه عبدالرحمن عبدالخالق

في الكويت

في رجب الحرام سنة 1406هـ

أبريـــــــل سنة 1986م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحـد، سبحانه وأشهد أنه لا ند له ولا شـريك وأنـه بذاتـه فـوق عرشـه عـال على جميـع مخلوقاته ومخترعاته ومصنوعاته وأنه هو الذي خلق الخلق وأوجد هذا العـالم من العدم وأنه ما خلـق الملائكـة والجن والإنس إلا ليعبـدوه ويوحـدوه ويمجـدوه وأن

السموات والأرض وما فيهما جميعاً كل له خاضع وأن الجميع وفق أمره، ورهن مشيئته، فما شاء كان وما لم يشأه لم يكن، وأثني عليه سبحانه وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد الذي بعثه الله إماماً للناس وهادياً ومرشداً ومفرقاً بين الضلالة والهدى، والكفر والإيمان، والشرك والتوحيد {فَمَن يَكْفُرْ بِالْطَّاغوت ويؤْمِن بِاللهِ فقَدِ اسْتمسَك بالعُروَة الوُثقى لا انفصام له والله سميع عليم}.

وبعد:

فإن أعظم فتنة ابتلي بها المسلمون قديماً وحديثاً هي فتنة التصوف. هذه الفتنة التي تلبست للمسلمين برداء الطهر والعفة والزهد والإخلاص، وأبطنت كل أنواع الكفر والمروق والزندقة، وحملت كل الفلسفات الباطلة ومبادئ الإلحاد والزندقة. فأدخلتها إلى عقائد الإسلام وتراث المسلمين على حين غفلة منهم، فأفسدوا العقول والعقائد. ونشروا الخرافات والدجل والشعوذة، ودمروا الأخلاق، وأتوا على بنيان دولة الإسلام من القواعد إذ حارب المتصوفة العلم والجهاد والبصيرة في الدين، بل والزواج والعمل والكسب، فنصبوا للقرآن والسنة حرباً لا هوادة فيها، وحرفوا الناس عن تعليمها بكل سبيل زاعمين تارة أن القرآن والسنة علم أوراق وظواهر وأن علمهم الباطني علم أرواح وحقائق واطلاع على الغيب ومشاهدة وتارة أخرى زاعمين أن أورادهم وأذكارهم تفضل ما في القرآن والسنة آلاف بل عشرات الآلاف من المرات وتارة ثالثة واصفين كل علماء الشريعة بأنهم محجوبون مرتزقة ظاهريون جامدون، لم يتذوقوا الحقائق ولم يشاهدوا الغيب، واختص المتصوفة أنفسهم وهم بوجه عام من الزنادقة المبتدعين والكفار المستترين بأنهم أهل العلم اللدني، والحقيقة..

واستطاعوا بذلك أن يدخلوا كل ما سطره الكفار والزنادقة إلى عقائد المسلمين وأول ذلك ما يسمى بعقيدة وحدة الوجود التي تنادي بأن الوجود كله وحدة واحدة فلا خالق ولا مخلوق، الكل عين واحدة، وحقيقة واحدة في زعمهم تعددت وجوداتها، وتغيرت صفاتها ولكنها شيء واحد فالجنة والنار، والرسل والشياطين، والمؤمنون والكفار، والطهارة والنجاسة، والشرك والتوحيد شيء واحد وذات واحدة، ولا فرق -بتاتاً- عندهم بين موسى وفرعون، وإبليس أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم وفضَّل شيخهم الأكبر كما يدعون فِرعون على موسى لأن فرعون علم الحقيقة التي يدعيها الصوفية -حيث قال (أنا ربكم الأعلى)!! وهكذا خرج المتصوفة على المسلمين بدين، هذه مبادئه دين يرى في إبليس مثالاً للفتوة والتوحيد. لأنه لم يرض أن يسجد إلا لله بزعمهم، وبفرعون إماماً لأهل الإيمان الصوفي.. لأنه عرف الحقيقة وأنه هو الله، والحال عندهم أنه ليس في الكون إلا الله.. دين لا يفرق بين خالق ومخلوق وشرك وتوحيد، وكفر وإيمان، وطهر وفجور.. وجنة ونار.

أقول لقد استطاع المتصوفة إفساد عقائد المسلمين في قرون متطاولة، واستطاعوا كذلك إفساد أعمالهم وشرائعهم وكانت لهم اليد الطولى في هزيمة العالم الإسلامي وسقوطه تحت نير الاستعباد والذل والتبعية لدول الكفر، كان التصوف هو المعبرة التي عبر عليها الملحدون والزنادقة والمفسدون في الأرض والعباءة التي تستر بها كل من يريد التخريب والتدمير لأمة الإسلام ورسالة القرآن ثم بعد ذلك كان التصوف هو الجسر الذي ركبه وعبره كل من يريد الوصول إلى تعظيم الناس له، واستعباد الآخرين، وأكل أموالهم بالباطل فقد تحول الزنادقة ومن لا أصول لهم معروفة من الأعاجم والملاحدة فدخلوا في التصوف، وانتسبوا زوراً إلى أهل بيت النبوة وادعوا الكرامات والكشوف والعلوم

الإلهية اللدنية التي تنزل عليهم، ومن ثم سخروا الناس لخدمتهم بل وعبادتهم من دون الله أحياءً وأمواتاً، فحملت لهم الهبات والهدايا. وانهالت من كل حدب وصوب، وقدسهم الناس وعظموهم تعظيماً لم تعرفه الملوك ولا أبناء الملوك من الجبابرة المفسدين واستطاع هؤلاء الزنادقة المتسترون أن يقيموا إقطاعات دينية، وممالك طائفية تربعوا على عروشها، وجعلوها وراثة في أولادهم من بعدهم.

سبب تأليف الكتاب:

لقد كانت رؤية هذا الخطر الماحق على أمة الإسلام هو السبب الذي حداني إلى أن أؤلف هذا الكتاب، كاشفاً القناع عن الحركة الصوفية قديماً وحديثاً، مبصراً المسلمين بأبعادها، مبيناً مخاطرها وأهدافها.

منهج الكتاب وتقسيماته:

وقد صدر أصل هذه الرسالة سنة 1975م وقد شملت الجانب العقائدي فقط من التصوف وانشغلت عن إتمام الكتاب بمشاغل أخرى ثم يسر الله سبحانه وتعالى أن يتم الكتاب بالصورة التي كنت أطمع فيها حيث قسمت الكتاب إلى أبواب ستة جعلت الباب الأول لبيان الخطوط العريضة لعقيدة الإسلام في الكتاب والسنة، وأنه لا عقيدة إلا من القرآن والسنة، ولا شريعة كذلك إلا منهما وأن كل ما خالفهما فهو باطل. وذلك حتى تتضح هذه الحقيقة التي هي أصل الدين وأساسه والتي عمل الصوفية كل همهم لنقضها وهدمها، فالتصوف يقوم أول ما يقوم على هدم هذين الأصلين توحيد المعتقد، وتوحيد العمل، فعند الصوفية كل ما اعتقده الناس جميعاً مؤمنين وكفاراً وزنادقة وفلاسفة وعلى أي ملة ومذهب فهو حق، وكل عمل وشريعة فهي حق وأما الإسلام فإنه يقوم أول ما يقوم على أنه لا هدي إلا هدي الإسلام ولا عقيدة حق إلا عقيدة الكتاب والسنة ولا شريعة واجبة الإتباع إلا شريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا صراط يوصل إلى الله إلا صراطه. وأما المتصوفة فكل الطرق نافعة وصالحة وكل الشرائع مهما كانت فعينها واحدة.

وخصصت الباب الثاني لمجمل تاريخ التصوف: كيف بدأ التصوف، وكيف انتشر وما هي المراحل التي مر بها إلى يومنا هذا والخطوط العريضة للفكر الصوفي في العقائد والشرائع.

وأما الباب الثالث فهو أوسع الأبواب، وقد شمل ثلاثة عشر فصلاً كلها في تفصيل المعتقد الصوفي كيف بدأ وكيف تطور إلى أن وصل إلى غاياته ونهاياته في القول بوحدة الوجود، والمناداة بوحدة العقائد جميعاً، والأديان جميعاً وجعل كل المتناقضات حقيقة واحدة (لله في زعمهم) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ثم عرضنا لعقيدة المتصوفة النهائية فشرحناها بحمد الله فصلاً فصلاً بدأنا بما سموه بالحقيقة المحمدية ويعنون بذلك أن الرسول هو أول موجود في الكون وهو المستوي على عرش الله فوق السماوات السبع، وأنه هو الذي خلق هذا العالم من نوره وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع وأن كل العوالم السفلية والعلوية من فعله وصنعته وتدبيره وأنه بذلك المظهر الحسي لله في زعمهم. الله الذي لا يعدو كونه عندهم هو مجموع هذا العالم!!

شرحنا عقيدتهم هذه بالنصوص من كتبهم، ورددنا عليهم، ثم بينا معتقدهم في الخضر عليه السلام والذي جعلوا له صورة وحقيقة غير ما جاء في الكتاب والسنة. ثم بينا عقيدتهم في علم الغيب وما سموه بالكشف، ثم قولهم في

معراج الروح إلى السماوات ونقلنا نقـولاً مستفيضـة من خرافـاتهم وترهـاتهم ثم بينا كذلك أقوالهم وعقائدهم في الولاية الصوفية وشرحنا كيف خلعوا كل صـفات الربوبية على أوليائهم المزعومين. وبينا مراراً الولاية عندهم وتقسيماتهم لهـا، ثم خصصنا فصلاً لمعتقدهم فيمـا سـموه بختم الولايـة ومن قـال بـذلك منهم قـديماً وحديثاً ثم في عقيدتهم الخرافية في الديوان الـذي يحكم العـالم من جبـل حـراء بمكة!!.

وأما الباب الرابع: فقد خصصناه للشعائر الصوفية فعرضـنا لشـعائرهم في الـذكر وكيـف يتلقـون أذكـارهم في زعمهم من الرسـول يقظـة لا منامـاً ومن اللـه -في زعمهم- مكتوبة!! وكيف يتلقـون من القبـور. وبينـا أيضـاً مـا زعمـوه من فضـائل لأذكارهم المكذوبة. ثم بينـا منهجهم وطـريقتهم فيمـا سـموه بالشـطح. وشـرحنا منهجهم في التربيــة الصــوفية وكيــف يغســلون الأمخــاخ ويحولــون العقلاء إلى مجانين ومجاذيب ودراويش سائمة يسـهل قيـادتهم وتـوجيههم. وبينـا في الفصـل الرابع من هذا الباب الطرق الصوفية وشرحنا بالتفصيل طريقـة حديثـة مشـهورة هي الطريقة التجانية لما لهذه الطريقة من شهرة وانتشار. وفي الفصل الخامس نقلنا بالنص مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية لأتباع الطريقة الرفاعية في وقته.

وأما الباب الخامس: فقد شـرحنا فيـه الصـلة بين التصـوف والتشـيع وأنهمـا كانـا دائماً وجهين لعملة واحدة. عملاً لأهداف واحدة وأخذ كل منهما عن الآخر.

وأما الباب السادس: والأخير فقد بينـا فيـه موقـف طائفـة من علمـاء المسـلمين قديماً وحديثاً من الفكر الصوفي بدءاً بالإمام الشافعي رحمه اللـه الـذي كـان لـه السبق الأول في الكشف عن هذه الفرق الباطنية، ثم الإمـام أحمـد الـذي فضـح مسلكهم وحارب أوائلهم حتى اختفـوا إلى أن مـاتوا. وختمنـا هـذا البـاب بشـهادة لرجلين متـأخرين كانـا من رجـال التصـوف البـارزين فهـداهما اللـه إلى الإسـلام الصحيح وكتب كـل منهمـا في فضـح التصـوف وهمـا الشـيخ الـدكتور تقي الـدين الهلالي والشيخ الراحل عبدالرحمن الوكيل.

هذا وإني لأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وأن يكون هذا الكتاب النور الهادي للأمة لكشف غمـة التصـوف حـتى تـنزاح إلى غير رجعة عن وجه العالم الإسلامي.

وقد حاولت جهدي أن أسهل العبارة وأشرح الغـامض وأختصـر في الـرد وأبسـط وأسترسل في النقل من كتب القوم وذلك لعلمي أن ظهور عقائد هؤلاء الزنادقة كاف في إبطالهـا وذلـك أنهـا عقائـد ينفـر منهـا كـل قلب سـليم وكـل فطـرة لم تتنجس. وإنه ليكفي فقط أن نكشف الهالة الزائفة التي أحيطت بالتصوف لتظهر الحقيقة العارية البغيضة المشينة والتي إذا علمها أي مسلم لا بد أن ينكرها.

مميزات هذه الرسالة عن غيرها:

وأحمد الله أن هذا الكتاب قد تميز عن كتب كثيرة كتبت في بيان حقيقة الصوفية أنه كان موضوعياً مفصلاً وهو أول كتـاب فصـل بين العقيـدة الصـوفية والشـريعة الصوفية وشرح كل باب من أبواب المعتقد الصوفي على حدة وكـل شـريعة لهم على حدة. وبذلك تكتمل الصـورة عنـد القـارئ ويفهم مغـاليق التصـوف ويتعـرف على دروبه وسراديبه الخفية.

وفي الختام أسأل الله ثواب هذا العمل من عنده إنـه هـو السـميع العليم وصـلى الله وسلم على عبده ورسـوله الأمين وأصـحابه الطيـبين الطـاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في يوم الاثنين

9 من ذي القعـــدة سنة 1404هـ

الموافق 6 من أغسطس سنة 1984م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي وصف نفسه في كتابه، وعلى ألسنة رسله، فهدانا وعلمنا، وشرح صدور أهل الإيمان إلى توحيده وعبادته وتقديسه، فشهدوا شـهادة الحـق أن اللـه إله واحد سبحانه، كما قال عز وجل {شهدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلا هوَ والملائكـة وأولـوا العلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ} (آل عمران:18).

أحمده سبحانه، وأستعينه وأستغفره، وأسأله أن يجعلني أحد أولئك الذين شـهدوا له بالوحدانية، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله، محمد الـداعي إلى سـبيل ربـه على بصيرة، الذي وصف ربه بما أوحي إليه، فأقام، للناس دينهم الحق، فصلوات الله وسـلامه عليـه، وعلى آلـه وأصـحابه، ومن سـار على نهجـه القـويم إلى يـوم الدين.

وبعد:

فالحركة الصوفية حركة قديمة، نشأت في منتصف القرن الثاني الهجري، وبلغت قمتها العقائدية في أواخر القرن الثالث، أي بعد مرور مئة وخمسين سـنة تقريبـاً على نشأتها. وأصبحت عقيـدة عامـة، وديناً عامـاً لعمـوم المسـلمين إلا قليلاً في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر، وكانت هذه القـرون قـرون ظلام وجهـل، أفاق العالم الإسلامي بعدها على الغزو الأوربي لأراضيه. وكـان العـالم الإسـلامي في ذلك الوقت في حالة بلغت منتهى السوء، فإن كثيراً من علماء المسلمين لم يجدوا ما يجابهون به الفاتحين من الفرنسيين إلا أن يقرؤوا كتاب البخاري!! وكان ذلـك في القـاهرة وفي الأزهـر ثم اصـطحاب نـابليون وإلباسـه جبـة المشـيخة، وإدخاله في حلقة من حلقات الذكر!!.

وأمـا في المغـرب فـإن أتبـاع الشـيخ أحمـد التجـاني كـان لهم شـرف خدمـة الفرنسيين في ترسيخ أقدامهم في شمال أفريقيا وغربها، وأما في السودان فإن السيد الميرغني والطريقة الختمية قد وطـأت النـاس لـدخول الإنجلـيز، والقضـاء على الثورة المهدية.

وهذه الحركة الصوفية ما زالت تعيش إلى يومنا هذا، بل هي في حالة بعث جديد تقوم عليه اليوم مراكز تعليمية كبيرة في بلاد الغرب وفي بلادنا الإسلامية، وهناك حركـة نشـطة لبعث الـتراث الصـوفي، ليكـون دعامـة لبعث إسـلامي في زعم القائمين على نشر هذا الفكر.

ولقد كانت صلتي بدراسة التصوف قديمة، وذلك للموقف المتناقض الذي وقفه كثير من الباحثين والعلماء من هذه الحركة الصوفية، ومن فكرها الذي نشأ عنها، وكذلك للاختلاف الشديد حول رجالها، فكم من رجل من رجال التصوف اتهمه أناس بالزندقة والإلحاد، ووصفه آخرون بالقديسية والقطبية والغوثية. ولقد كان هذا التناقض والاختلاف في موقف علماء الإسلام إزاء هذه الحركة، وهذا الفكر باعثاً لي على النظر والتفكير والبحث.

فمكثت مدة طويلة أجمع القول إلى القول، وأقف عند العبارة الغامضة طويلاً، وأفسر كلام القوم بعضه ببعض. وأظن أنني الآن بحول الله قد عرفت مغاليق هذا الفكر، ومساربه الخفية، ولم يكن هذا الأمر سهلاً قط، بل يعلم الله أنني تحملت فيه كثيراً من الآلام النفسية المرهقة، وذلك أن أساطين القوم قد مارسوا تشويهاً لكتاب الله عز وجل، وقلباً لمفاهيم السنة الصحيحة، لا يحيط به إلا الله، ولا يطيق الوقوف عليه مسلم جاد!!

ولقد تجشمت مشقة ذلك لعلمي بعد الدراسة والجهد أن هذا الفكر هو أخطر ما يجابه المسلمين في الوقت الحاضر من مشكلات، فمشكلة الفكر الصوفي مشكلة عقائدية، والمشاكل العقائدية هي أخطر ما تقابله الأمة، فالأمة يتحول عملها كله بتحول عقيدتها، فالتتر عندما أسلموا حقيقة، تركوا حرب المسلمين، والمسلمون عندما تركوا الإسلام، وعقيدة الجهاد رضوا بالمستعمرين، وتخلقوا بأخلاقهم، وتثقفوا بثقافتهم.

وهذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ هو بحث في العقيدة الصوفية: ما هي؟ وما الغاية التي تسعى المتصوفة إلى غرسها؟ وما الفروق بين هذه العقيدة وعقيدة أهل السنة؟ وهذه العقيدة أنقلها لك بنصوصها من الكتب والمراجع الصوفية، التي يعتبرها المتصوفة من أنقى كتبهم وأشهرها، كاللمع للطوسي، والتعرف على مذهب أهل التصوف للكلاباذي، وطبقات الصوفية للسلمي، وغير ذلك من الكتب التي كتبت بأقلام رجال التصوف بأنفسهم.

وستعلم من هذه الدراسة أن التصوف عقيدة فلسفية قديمة، نشأت قبل الإسلام في الفلسفة الاستشراقية المنسوبة إلى (أفلوطين). والفلسفة الهندية القديمة، والتي ما زالت عقيدة الهند إلى اليوم، وهي القول بوحدة الوجود، وهذه العقيدة هي عقيدة كثير من شعراء الفرس قبل الإسلام، وبعد الإسلام كجلال الدين الرومي.

وهذا يعني أن التصوف غير الزهد المعروف في العقيدة الإسلامية، فالزهد شيء، والتصوف شيء آخر، يختلف عنه كل الاختلاف، بل هناك فرق بين الزهد في عقيدة الكتاب والسنة، والزهد في العقيدة الصوفية. فالتصوف فلسفة كاملة، وعقيدة غايتها فتح القلب على علوم غيبية، لا تتلقى عن الرسل، بل تتلقى بطريق (الكشف) عن الله رأساً، أو عن الرسول (حسب زعمهم). ثم التحقق بعد ذلك أن لا موجود في الكون إلا الله، وبذلك يصبح العبد هو الرب، والرب هو العبد، بل الكل شيء واحد في الحقيقة، متفرّق في الصور فقط!! وطريق الوصول إلى هذا العلم الغيبي (الكشف هو المجاهدة بصور كثيرة). وتختلف هذه الصور باختلاف الزمان والمكان، والأشخاص والديانات!! ويجمعها أمور واحدة هي تعذيب النفس، وترديد أذكار معينة، والعزلة وترك الطهارات.

ولا يعني هذا أن كل رجل نسب إلى التصوف كان يعتقد هذه العقيدة، بل من وصل الغاية منهم وصل إلى هذا، ومن لم يعرف التصوف لم يصل إلى هذه

الغاية، ووقف عند مرحلة من مراحل الطريق الصوفي، الذي ينتهي بتلك النهايـة. فالطريق الصوفي مراحل، وكلام كل إنسان فيـه يـدل على المرحلـة الـتي انتهى إليها.

والجوانب التي يجب أن يتعـرض لهـا بحث كامـل عن التصـوف جـوانب كثـيرة، لا يسعها هذا البحث، ولذلك فقـد اقتصـرت في البحث الـذي بين يـدي القـارئ الآن على بحث الجانب العقائدي فقط في الفكر الصوفي، جواباً عن سـؤال هـام: مـا هو التصوف؟ وما العقيدة الـتي ينتهي إليهـا؟ ومـا موقـف هـذا الفكـر من قضـية الكتاب والسنة؟ وأسأل الله أن يوفقني قريباً إلى إخراج هذا البحث كاملاً، معالجاً جميع القضايا التي أثارها هـذا الفكـر في العبـادات والسـلوك وتزكيـة النفس، ثم الآثار السياسية والاجتماعية لهذا الفكـر، مـع تعريـف برجالاتـه، منـذ ظهـوره إلى يومنا هذا، سائلاً الله تبارك وتعالى أن يجعـل في هـذه الرسـالة الميسـرة هدايـة ونوراً لأبناء أمتي الإسلامية، الـذين يعـزهم الطريـق المسـتقيم إلى رب العـالمين سبحانه وتعالى، في وقت تختلط فيه السبل، وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه، وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالرحمن عبدالخالق يوسف

الكويت في غرة جمادي الآخرة لـ 1394

21 يونيـــــــــو 1974

الباب الأول

الكتاب والسنة عقيدة ومنهجا

أ- الكتاب والسنة عقيدة

1- بُعث رسول الله صلى الله عليه وسـلم في عصـر قـد انطمسـت فيـه معـالم الإيمان بالحق تبارك وتعالى:

أ- فالعرب يعتقدون في وجود الله، وأنه خالق الكون، ومـنزل المطـر، ولكن هـذا الإله في نظرهم لا يستطيع إحياءهم بعد الموت، وليست له غاية من خلق الناس غير هذه الدنيا التي خلقهم فيها، فليس هناك قيامة ولا حساب، ثم هو إله كملوك الأرض يتوسل إليه من أجل الرزق والمطر، والنصر على الأعداء بكل حبيب عنده كالملائكة والصالحين.

ب- وأما النصارى فقـد درس دينهم الحـق، ولم يبـق عليـه إلا أفـراد قلائـل، وأمـا الكـثرة الغالبـة فقـد اعتقـدت أن عيسـى هـو اللـه أو ابن اللـه -تعـالى ربنـا عمـا يقولون- وجعلوا علماءهم ورهبانهم أربابـاً، ينفـذون أقـوالهم في كـل شـيء، ولـو خالف ذلك نصوص الكتاب عندهم، ورفعوا الصـالحين منهم إلى منزلـة التقـديس والتأليه.

ج- وأما اليهود فقد غالوا في تشبيه اللـه بخلقـه، ونسـبوا إليـه كـل القبـائح الـتي تنسب إلى البشر من الكذب والبخل، والغفلة، وعدم العلم بالمستقبل.

د- وفي بلاد فارس والهند عاشـت فلسـفات كثـيرة، كـل فلسـفة تصـور معبودهـا بصورة تروق في عقل قائلها:

- ففلسفة نادت بإلهين للعالم: إله للنـور وآخـر للظلمـة، وزعمت صـراعاً بينهمـا، ودعت الناس إلى مساعدة إله الخير والنور، بإشعال النـيران لينتصـر الحـق على الباطل.

- وفلسفة نادت بخالق للكون، يجب على الإنسـان أن يجاهـد نفسـه بصـنوف من المجاهدات حتى يفنى فيه ويلتحق به، ولا تنسخ روحه مرة ثانية بعـد المـوت إلى هذا العالم.

- وفلسفة نادت بالوجود الكلي لذات واحدة، تعددت وجوداتها بتعدد صفاتها، ولهج الشعراء والكتاب من الفرس بحب هذه الذات الـتي تـتراءى لهم في كـل شـيء، وتظهر لهم في كل موجود.

هـ- وفي اليونان ظهرت فلسفات كثيرة نادى معظمها بخالق للكون سموه واجبـاً للوجود أو علة للعلل، عنه نشأ العالم وصـدر، ولكن هـذه الفلسـفة وقفت حـائرة عاجزة أمام الغاية والهدف الذي من أجله خلق هذا الخالق الكون، والنهايـة الـتي يسير إليها الناس.

2- وكل هذه الفلسفات السابقة كانت محاولات بشرية لمعرفـة الغيب، ومـا وراء هذا العالم المشاهد، وبديهي أن تنتهي هذه المحاولات البشرية بالإخفـاق الـذريع، إذ لا ســبيل للبشـــر إلى معرفـــة الغيب إلا الظن والحـــدس والتخمين، أو الجن والشياطين.

3- بعث الله رسوله محمداً صـلى اللـه عليـه وسـلم ليرشـد كـل أولئـك الحيـارى الضالين إلى ربهم وخـالقهم سـبحانه وتعـالى، وليعلمهم الحكمـة الـتي من أجلهـا خلقهم، والغاية التي إليها يسيرون، والمنهج الذي يحبه الله لعباده ويرضاه لهم.

4- وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس الدليل الكامل على أنه رسـول من الله تبارك وتعالى، يأتيه الوحي من السماء، فقال لهم: هذا كلام الله، أقــرؤه عليكم، وإن لم تصدقوني فأتوا بسورة واحدة من مثله.

5- وكـان على الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أن يواجـه كـل هـذا الركـام من الأفكار والعقائد والمذاهب والفلسفات، وأن يقيم الحجة والبرهـان على فسـادها جميعاً، وصحة ما يدعو هو الناس إليه، وكانت المعركة عقائدية.

6- وتركزت هذه الحرب حول أصلين اثنين يتفرع عنهما فروع كثيرة:

أ- فالأصل الأول هو توحيد الله وحده، وهذا يعني أنه الإله الخالق وحـده، المعبـود وحده، الذي لا يشاركه في صفاته وأفعاله أحد سبحانه وتعالى، والذي يتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال، وينتفي عنه أضداد ذلك.

ب- والأصل الثاني هو توحيد الطريق إليه، فلا يحكم في شؤون النـاس غـيره، ولا يتقرب إليه بما شرع هو سـبحانه وتعـالى، وكـان هـذا هـو معـنى "لا إلـه إلا اللـه، محمد رسول اللـه" فلا إلـه إلا اللـه: الأصـل الأول، ومحمـد رسـول اللـه: الأصـل الثاني.

7- ولقد نُوزع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الأصلين:

أ- فأما المشركون من العرب فقالوا: {أجعـل الآلهـة إلهـاً واحـداً إنَّ هـذا لشـيءٌ عُجابٌ} (الزمر:3) وقالوا عن آلهتهم: {مـا نعبُـدهم إلاّ ليقربونـا إلى اللـه زُلفى} (الزمر:3) وقالوا: {هؤلاءِ شُفعاؤُنا عندَ اللهِ} (يونس:18).

وكان رد الله تباركِ وتعالى: قلِ: {لَو كانَ فيهما ءالِهَةٌ إلا اللهُ لفسـدَتا} (الأنبيـاء: 22)، {قُل للهِ الشَّفاعَة جميعاً} (الزمر:44).

وعن الأصل الثـاني: قـال تعـالى هادمـاً تشـريعاتهم الباطلـة في الحلال والحـرام والتقرب: {أم لهم شركاؤا شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} (الشـورى: 21).

ب و ج- وأما اليهود والنصارى فزعمت كل طائفة أن طريقهـا هـو الصـواب، وأن معبودها هو الحق، وأن الجنة خالصـة لهم من دون النـاس، فكـان رد اللـه تبـارك وتعالى: {قل إن هدى الله هو الهدى} (البقرة:120)، {قل إن كنتم تحبـون اللـه فاتبعوني يحببكم الله} (آل عمران:31).

والقرآن كله بيان لجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم مع هـذه الطوائـف الثلاث في شأن هذين الأصلين.

8- وآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم رجال أخلصوا دينهم لله، فأحبوه وآثـروه على كـل شـيء، وأحبـوا رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم، وافتـدوه بـأرواحهم وأنفسهم، وبذلوا الجهد في متابعته وطاعته، وفي تنزيـه اللـه وتقديسـه وعبادتـه، وتحققوا بهذين الأصلين، وقاموا بهـا خـير قيـام حـتى أثـنى عليهم الحـق سـبحانه وتعالى في آيات كثيرة من كتابه. من ذلك قوله جل وعلا:

{محمد رسول اللـه والـذين معـه أشـداء على الكفـار رحمـاء بينهم تـراهم ركعـا سـجداً يبتغـون فضـلاً من اللـه ورضـوانا سـيماهم في وجـوههم من أثـر السجود}..الآيـة (الفتح:29)، فرضـي عنهم سـبحانه ورضـوا عنـه، وعرفـوه حـق معرفته، وقاموا بدينه خير قيام.

وأثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فقـال: [خـير النـاس قـرني، ثم الـذين يلونهم، ثم الذين يلونهم] (رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسـعود، وغـيرهم عن غيره)، وشهد لأفراد منهم بالجنة والفضل، وكان من هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنـه، الـذي قـال عنـه رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : [وزنت بالأمـة فرجحت، ووزن أبو بكر بالأمة -لست فيها- فرجح، ووزن عمر بالأمة -لسـت فيهـا وأبو بكر- فرجح] (رواه أحمد (2/76) بنحـوه وإسـناد ضـعيف، فيـه عبيـد اللـه بن مروان أورده ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل-5/334) ولم يحك فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات، وفيه أيضاً أبو عائشـة أورده صـاحب (الجـرح والتعديل-9/417) ولم يحك فيه كذلك جرحاً ولا تعديلاً، وعلى هذا فهما مجهـولان وبـاقي رجالـه ثقـات. وروى أحمـد (5/44 و 50) وأبـو داود (4634) والترمـذي (2389-تحفة) وصححه، كلهم عن أبي بكـرة أن أحـد الصـحابة رأى في منامـه أن ميزاناً دلي من السماء، فوزن به النبي صلى الله عليـه وسـلم وأبـو بكـر، فـرجح النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وزن به أبو بكر وعمـر، فـرجح أبـو بكـر، ثم وزن عمر وعثمان، فرجح عمر، ثم رفع الميزان. وقد قواه أستاذنا الألباني في (تخريج المشكاة-3/233) بطريقيه).

وقال: [لو كان نبي بعدي لكـان عمـر] (رواه بنحـوه أحمـد (4/154) والترمـذي (2/293) وحسـنه والحـاكم (3/85) وصـححه وغـيرهم، كلهم عن عقبـة بن عـامر مرفوعاً، وحسـنه أسـتاذنا الألبـاني في (السلسـلة الصـحيحة-327) وفي (صـحيح الجامع-5160))، وقال لبلال: [إني سمعت دف نعليك بين يـدي في الجنـة] (رواه البخـاري (3/376)-من الفتح) وأحمـد (2/333 و439) عن أبي هريـرة، ولفـظ البخاري: قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال عند صلاة الفجر: [يا بلال، حدثني

بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة] قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. ودف النعل هو صوت حركتها الخفيف وسيرها اللين)، ونحو ذلك كثير جداً.

9- ومع ذلك فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على بقاء أصلي التوحيد "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" نقيين صافيين، فما كان يسمح بتاتاً يخدش هذين الأصلين، ولو من أحب الناس لديه وآثرهم عنده صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدلة على ذلك:

أ- أنه رأى يوماً بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة، وكان عمر قد أعجبه ما فيها، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال لعمر: [أهذا وأنا بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية.. والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني] (رواه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (3/387) والبيهقي في شعب الإيمان، والدارمي(1/115-116) بأتم منه، قال أستاذنا الألباني في (تخريج المشكاة-1/63): "وفيه مجالد بن سعيد، وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي لأن له طرقاً كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما، وقد خرجت بعضها في (الإرواء-1589)")، وفي هذا الحديث من الفقه:

أولا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعجب أن يبدأ الاهتداء بغير الكتاب والسنة وهو ما زال حياً. ومن مقتضى الإيمان بالكتاب والسنة أن يعتقد أن الهدي فيهما وحدهما.

وثانيا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء بالدين نقياً خالصاً، لم تشبه شائبة من تغيير أو تبديل أو تحريف، والصحابة يتلقونه غضاً طرياً خالصاً، فكيف ينصرفون عنه ويهتدون بما شابه التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

وثالثا: أن موسى عليه السلام نفسه الذي نزلت عليه التوراة لو أنه حي موجود لكان اللازم في حقه هو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وترك شريعته التي بلغها للناس.

وهذا الحديث أصل في بيان منهج الكتاب والسنة، وأنه لا يجوز لأحد أن يهتدي بعلم يقرب إلى الله، ويصلح النفس غير الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لو كان أصله من شريعة منزلة علي أحد الأنبياء السابقين.

ب- والدليل الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع خطيباً يخطب بين يديه فكان مما قاله: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى] (رواه مسلم (6/159-بشرح النووي) وأحمد (4/256 و379).

فهذا الخطيب قد قاطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبَّح قوله أمام الناس، والسبب أنه جمع بين الله ورسوله في ضمير واحد [ومن يعصهما] فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعيد ذكر الإسم الظاهر لله ولرسوله، حتى لا يُظن ولو من بعيد أن منزلة الرسول كمنزلة الله عز وجل. وهذا الحرص من الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على وجوب صون جناب توحيد الله تبارك

وتعالى صوناً كاملاً، ووجوب التفريق التام بين ما يجب لله عز وجل، وما يجب لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ج- والدليل الثالث أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكان من خيار الصحابة، لما توفي، وحضر عنده الرسول صلى الله عليه وسلم سمع الصحابية الجليلة أم العلاء تقول: شهادتي عليك أبا السائب أن الله قد أكرمك.. فرد الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: [وما يدريك أن الله قد أكرمه؟] وكان هذا تنبيهاً عظيماً من الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الصحابية بأنها قد حكمت بحكم غيبي، وهذا لا يجوز، لأنه لا يطلع على الغيب إلا الله عز وجل، ولكنها ردت قائلة: سبحان الله يا رسول الله!! ومن يكرم الله إذا لم يكرمه؟ أي إذا لم يكن عثمان بن مظعون رضي الله عنه ممن يكرمهم الله تبارك وتعالى فمن بقي منا حتى يكرمه الله تبارك وتعالى.

وهذا رد في غاية البلاغة والفهم. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليها بما هو أبلغ من ذلك حيث قال لها: [والله إني لرسول الله لا أدري ما يفعل بي غداً] وكان هذا نهاية الأمر وحسمه، فالرسول بنفسه وهو من هو صلوات الله وسلامه عليه يجب أن يظل خائفاً مترقباً (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وهنا وصلت أم العلاء إلى الحقيقة الشرعية العظيمة فقالت: والله لا أزكي بعده أحداً أبداً (رواه البخاري (3/358 و6/223 و224 و8/266 و6/49 و69-من الفتح) وأحمد (6/436) عن أم العلاء الأنصارية بنحوه).

وهذا الأصل مقرر في الشريعة في آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى: {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً* انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا} (النساء:49 و50) ومنها قوله: {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا} (النساء:123)، وكان هذا رداً على اليهود الذين قالوا: نحن أهل الجنة، ونحن شعب الله المختار، ورداً على النصارى الذين قالوا: بل نحن أهل الجنة، لأننا أتباع ابن الله المخلص للبشر من خطيئتهم، ورد أيضاً على المسلمين الذين قالوا: بل نحن أهل الجنة لأننا أتباع رسوله محمد خاتم الرسل والموحدين، فأخبر تعالى أن الجنة ليست بالأماني، وإنما بالعمل الصالح، وأن من عمل سوءاً يجز به، ولا تنفعه نسبته وروي في الحديث: [من قال أنا في الجنة فهو النار] (فيه إشارة إلى ضعفه، وقد أورده الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة ص423 ضمن الحديث على حديث: [من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل] وعزاه إلى (المعجم الصغير للطبراني عن يحيى بن أبي كثير) وقال: وسنده ضعيف، وهو عند الديلمي في مسنده عن جابر بسند ضعيف جداً، ورواه الحارث بن أبي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفاً عليه، وهو منقطع).

د- والدليل الرابع أن رجلاً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: ما شاء الله وشئت فقال له صلى الله عليه وسلم : [أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده] (رواه أحمد (1/214 و224 و283 و347) والبخاري في (الأدب المفرد-783) وغيرهما، وأورده أستاذنا الألباني في (السلسلة الصحيحة-138) وعزاه إلى مخرجيه وحسنه)، فجعل صلى الله عليه وسلم المشيئة لله وحده، حتى يُعلِّم المؤمنين أن لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله تبارك وتعالى.

هـ- وأما الدليل الخامس فهو أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم مروا في أثناء خروجهم إلى هوازن بعد فتح مكة على شجرة، كان المشركون يعلقون عليها

سيوفهم، ظانين أنه من فعل ذلك حالفه النصر في معاركه مع العـدو، فقـالوا: يـا رسول الله اجعل لنـا ذات أنـواط كمـا لهم ذات أنـواط. أي شـجرة ينوطـون بهـا أسلحتهم. فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: [قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: {اجعل لنا إلهـاً كمـا لهم ءَالِهَـةٌ..} (رواه الإمـام أحمـد في مسنده (5/218) والترمذي في (سـننه–6/407 و408-تحفـة) وقـال: حـديث حسن صحيح، قلت: وإسناده صحيح كما قال، ورجاله رجال الستة غـير سـنان بن أبي سنان فلم يرو له أبو داود وابن ماجة)، فبين صلى اللـه عليـه وسـلم أن هـذا من عمل المشركين، وأن مشابهتهم في هذا شرك بالله تبـارك وتعـالى، إذ طلب البركة والنصر من غير الله عز وجل شرك به تعالى.

10- والأدلة السابقة كلها لبيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ليسـمح بتاتاً بخدش الأصل الأصيل في الإسلام، وهو توحيد الله عز وجل، والقول عليه بلا علم. وأخذ الهداية من غيره سبحانه وتعالى، وغير رسوله صلى الله عليه وسلم.

11- وقد سدَّ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه باب العرافة والكهانـة وادعـاء علم الغيب، وأخبر صلى الله عليـه وسـلم أن مـدعي ذلـك كـافر، وأن من صـدَّق عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد صلى اللـه عليـه وسـلم، وقـد سـئل صلى الله عليه وسـلم عن العـرافين فقـال: [ليسـوا بشـيء] هكـذا بنفي قيمتهم وتحقيرهم، فقال له أصحابه رضـوان اللـه عليهم: ولكنهم يخبروننـا أحيانـاً بـالأمر، فيكون كما قالوا، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسـلم أن الشـياطين تـركب بعضها بعضاً وتصل إلى العنان، وتسمع الملائكة تتكلم بالأمر من أمر اللـه تعـالى، فيتعلمونه منهم، فيرسل الله عليهم الشهب، فيلحقهم الشهاب أحيانـاً فيحـرقهم، وأحياناً يلقون الكلمة إلى من هو أسفل منهم قبل الشهاب، فيكذب الشيطان مع هذه الكلمة مئة كذبة، فلـذلك يصـدق أوليـاء الشـياطين من الإنس مـرة، ولكنهم يكذبون كثيراً (رواه مسلم في (صحيحه 14/225-نووي) ولفظـه: قـالت عائشـة: سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال لهم رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم: [ليسـوا بشـيء]. قـالوا : يـا رسـول اللـه، فـإنهم يحـدثون أحياناً الشيء يكون حقاً؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطـون فيهـا أكـثر من مئة كذبة]، وأما صعود الشياطين إلى السماء لاستراق السمع، وقذفهم بالشـهب فقد ورد في حديث آخر رواه البخاري في عدة مواضـع من صـحيحه، منهـا كتـاب التفسير (9/452-فتح) عن أبي هريرة، وعـزاه ابن كثـير إلى أبي داود والترمـذي وابن ماجة أيضاً. كما ورد مثله في حديث رواه مسـلم في صـحيحه (7/36 و37-نووي) وأحمد وغيرهما عن ابن عباس عن رجل من الأنصار).

12- ولما شك الصحابة في (ابن صياد اليهودي) الذي كان يسكن المدينة، وظنوه الدجال الذي حدث عنه رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، وأخـذ الرسـول معـه جماعة وزاره في منزله قال له الرسول مختبراً: [لقد خبأت لك خبئاً..].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أضمر في نفسه (سورة الدخان) فسـأله الرسول عما في نفسه، فقال عدو الله :(هو الدخ) ولم يستطع أن يكمل الكلمة، فقال له رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: [اخسـأ فلن تعـدو قـدرك]. أي لن تتعدى كونك كاهناً تتصل بالجن. ولذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم [كيف تـرى؟] قـال: يـأتيني أحيانـاً صـادق وكـاذب. أي تأتيـه أخبـار من الشـيطان صادقة أحياناً، وكاذبة أخـرى، فقـال رسـول اللـه: [لقـد لُبِّس عليـه] (رواه بنحـوه

مطـولاً البخـاري (3/462 و6/512 و13/180-من الفتح) ومسـلم (17/46 و58-بشرح النووي) وغيرهما).

وفي هذا الحديث دليل على أن الشيطان من الممكن أن يطلع على ما في نفس المؤمن، ويخبر وليه من الإنس، وأننا مـأمورون ألا نصـدق من الغيب إلا مـا أتانـا من طريق الله، ومن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم فقط.

وكـل هـذه الأدلـة الـتي ذكرناهـا، وغيرهـا لا يحصـى، إنمـا كـانت لتثبت الجـانب العقائدي الإيماني في دعوة الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم، وبيـان أن العقيـدة والإيمان بالغيب مصدره الله تبارك وتعـالى، وأنـه لا يجـوز لمسـلم بتاتـاً أن يتخـذ طريقاً آخـر للغيب يتلقى عنـه، وأن من فعـل ذلـك فقـد خـرج من الإيمـان باللـه تعالى.

ب- الكتاب والسنة منهجاً

للتشريع ميادين كثـيرة منهـا العبـادات، والمعـاملات، والسياسـة وأمـور المعـاش والحياة، وباب الاجتهاد مفتوح فيها جميعاً إلا العبادات فليس فيها اجتهاد، فكل مـا يتقـرب بـه إلى اللـه تبـارك وتعـالى من أعمـال يجب الوقـوف فيهـا عنـد الحـد المشروع، ولم يسمح الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد أن يزيـد على مـا قـال فيها، أو أن يبدل شيئاً منها. وهاك بعض الأدلة الـتي تثبت هـذا الأصـل من أصـول الإيمان:

أ- رأى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم رجلاً يمشـي في الحج بين رجلين يسندانه فقال صلى الله عليه وسلم: [ما هذا؟] فقالوا: يا رسول الله نذر أن يحج ماشياً. فقال صلى الله عليه وسلم: [إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني!! مـروه فلـيركب] (رواه بنحـوه البخـاري (4/450 و451-فتح) ومسـلم (11/102 و103) وغيرهما عن أنس) فنهى صلى اللـه عليـه وسـلم عن فعـل لم يشـرعه اللـه عـز وجل، وإن كان فاعله قاصداً به التعبد والتقرب إلى الله عز وجل.

ب- ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً آخر يجلس في الشمس فسـأل عنه، فقالوا: يا رسول الله نـذر أن يصـوم، ولا يتكلم ويجلس في الشـمس فقـال صـلوات وسـلامه عليـه: [ليتم صـومه، وليتكلم وليجلس في الظـل] (رواه بنحـوه البخـاري (12/401 و412) وأبـو داود (3300) وغيرهمـا عن ابن عبـاس) فـأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصوم الشرعي فقط، ونهـاه عن الصـوم المبتدع وهو السكوت. وإن كان مشروعاً في شريعة سابقة كما في قصـة زكريـا وقول مريم عليهما السلام: {إني نذرت للـرحمن صـوماً فلن أكلم اليـوم إنسـياً} (مريم:26)، ولكن الله عز وجل لم يتعبدنا بهذه الشريعة وأمـره بـأن يتحـول إلى الظل، لأن الجلوس في الشمس مع وجود الظل تكلف سخيف، وخروج عن جادة الحق، وعبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى.

ج- وأبلغ من الدليلين السابقين حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن أباه شـكاه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه زوجه امرأة من أشـراف العـرب، ومكث يسألها كل يوم: كيف رأيت زوجك؟ فقالت: صالحاً غـير أنـه لم يطـأ لنـا فراشـاً.. وذلك لخمس عشرة ليلة، فقال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم لعبداللـه بن عمرو بن العاص: [بلغني أنك تصوم النهـار وتقـوم الليـل]، فقـال: نعم يـا رسـول الله. ثم قال له الرسول صلى الله عليه وسـلم: [صـم من كـل شـهر ثلاثـة أيـام] فقال: يا رسول الله! قال صلى الله عليه وسلم: [خمساً]. قال: يـا رسـول اللـه! قال: [سبعاً]. قال: يا رسول اللـه! قـال: [تسـعاً]، ثم قـال لـه في النهايـة: [صـم

صيام أخي داود كان يصـوم يومـاً، ويفطـر يومـاً ولا يفـر إذا لاقى] (هـذا الحـديث مركب من روايتين رواهما مسلم في صحيحه (8/44-47 نووي) بنحوه، كما روى نحوه البخاري (5/124 فتح)).

وفي هذا الحديث من الفقه أن منهج الإسـلام هـو الإعتـدال بين حاجـات الإنسـان كلها فيعطي الإنسان حق ربه، ولا ينسى في سبيل ذلك حق زوجه ونفسه، وعينه وقوته. ولذلك جاء في الحديث الصـحيح: [إن لربـك عليـك حقـاً، ولزوجـك عليـك حقاً، فأعـط كـل ذي حـق حقـه] (رواه البخـاري (5/114 فتح) في قصـة سـلمان وأبي الدرداء، وفيه أن المتكلم بهذا هو سلمان، وقد صدق النبي صلى اللـه عليـه وسلم كلامه هذا. وفي قصة ابن عمرو الجملتان الأوليان منه مرفوعتين).

وهنا لفظه في الحديث يجب أن نقف عندها طويلاً، وهي أن المسـلم لا يجـوز أن يصوم صوماً يضعفه حتى إنـه ليفـر من العـدو، ولـذلك قـال الرسـول لعبـد اللـه: [فصم صيام داود كان يصوم يومـاً، ويفطـر يومـاً، ولا يفـر إذا لاقى] وهـذه القـوة البدنية للقاء العدو مطلوبة في الإسلام، لأن الجهاد هو من أعلى مراتب الإسـلام. فالذين يميتون قواهم بالتعبد ولو كـان أصـله مشـروعاً، ويطغى هـذا على جـانب آخر من العبادة فإنهم مفرطون بهذا الفعل، عاصون لله تبـارك وتعـالى من جهـة أخرى.

د- وفي الحديث الصحيح الآخر أن رجلاً سأل رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم عن صومه، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شـديداً، وجلس عمـر بن الخطاب يقول: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً حتى سـكن غضـب النـبي صـلى الله عليه وسلم (رواه مسلم (1/49-51) عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه بنحوه مطولاً)، وسر غضـبه صـلوات اللـه وسـلامه عليـه أن هـذا السـائل أراد أن يضاهي فعل الرسول في هـذه العبـادة الـتي كـان لـه فيهـا خصوصـية، وهي أنـه يواصل اليـوم واليـومين والثلاثـة وكـان يُسـأل صـلى اللـه عليـه وسـلم عن ذلـك فيقول: [لست كهـيئتكم إني أبيت عنـد ربي يطعمـني ويسـقيني] (رواه مسـلم (7/212 و215) بنحوه عن أبي هريرة وعائشة وأنس رضي الله عنهم).

هـ- وأبلغ هذه الأدلة كلها في مسـألة التعبـد والتقـرب، أنـه لا يجـوز فيـه إلا اتبـاع المشروع، والتقيد بالكتاب والسنة هو حديث النفـر الثلاثـة الـذين أتـوا إلى بيـوت النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوا عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقال أحدهم: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم! إن الله قد غفـر لـه مـا تقدم من ذنبه وما تأخر. أما أنا فأقوم ولا أنـام، وقـال الآخـر: أمـا أنـا فأصـوم ولا أفطر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء. فلمـا رجـع رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم وأخبر خـبرهم صـعد المنـبر، وجمـع النـاس ثم قـال: [مـا بـال أقـوام يقولون كذا.. أما إن أعلمكم بالله، وأتقاكم لله أنا، أما إني لأصوم وأفطر، وأقـوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني] (رواه البخـاري ومسـلم عن أنس رضي الله عنه وليس فيه صعود المنبر وجمع الناس).

وفي هذا الحديث من الفقه شيء كثير ويهمنـا الآن مـا نحن بصـدده، وهـو أن أي تجاوز فيما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، فمعنى ذلك الخروج من منهج الإسلام إلى منهج آخر حتى ولـو صلحت النيات، وأريد بذلك وجه الله عز وجل، فإن الرب تبارك وتعالى لا يُعبـد إلا بما شرع.

وأمر آخر وهو أن تجاوز فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء كان بتشريع جديد كالترهُّب، أو الزيادة في المشروع كالصيام أبداً، وقيام الليل كله هو اتهام للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في القمة من معرفة الله تبارك وتعالى، والقيام بحقه. ولذلك قال أولئك النفر: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يعنون أن الله قد غفر ذنوبه، فليس بمحتاج إلى اجتهاد في العبادة، ومعنى هذا أن الرسول قد ترك شيئاً من وسعه في العبادة استناداً إلى هذه المغفرة، والحظوة عند الله تبارك وتعالى، وهذا من الاعتقادات التي لا تليق في حق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ما ترك وسعاً في عبادة الله وطاعته، وكان صلى الله عليه وسلم في القمة دائماً، وفي المقدمة دائماً كما أمره بذلك ربنا سبحانه وتعالى حيث قال: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (الأنعام:162و163)، فهو صلى الله عليه وسلم أول المسلمين في كل شيء، فلا يجوز لمسلم أن يظن فيه غير ذلك، والزيادة علي ما شرعه إنما هي اتهام له صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال: [إن أعلمكم بالله، وأتقاكم لله أنا] ثم فاصل بين من أراد طريقه بالالتزام، ومن لم يلتزم قال له [فمن رغب عن سنتي فليس مني].

16- ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان كل ذلك، بل أعلن في كل خطبة من خطبه للناس : [وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار] (هاتان الجملتان جزء من خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدأ بها خطبه، والجملة الأولى عند مسلم والبيهقي، وهي الجملة الثانية عند النسائي، وإسناده صحيح، وانظر رسالة (خطبة الحاجة) لأستاذنا الألباني فقد جمع فيها طرقها ورواياتها)، وقال أيضاً : [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد] (رواه البخاري ومسلم) فكل عمل محدث يراد له التقرب إلى الله عز وجل فهو مردود على صاحبه، والتعبد هو بالمشروع فقط.

17- ولقد أصل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أصلاً خطيراً، وهو تعمد مخالفة أهل الكتاب والأمم الأخرى، وذلك حتى تتحقق ميزة الأمة بالمنهج المستقل والأفعال المستقلة، وحتى لا تختلط أفعال الأمة وعباداتها بأفعال الأمم الأخرى وعباداتها، فأمر أن نصلي بالنعال والخفاف مع العلم أن خلعها أتم لمعاني الخضوع والذلة، وذلك مخالفة لليهود والنصارى الذين لا يصلون في خفافهم ونعالهم. فقال: [إن أهل الكتاب لا يصلون في خفافهم ونعالهم، فصلوا في خفافكم ونعالكم] (رواه أبو داود (652) عن شداد بن أوس، وإسناده صحيح، ولفظه: [خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم] وصححه الألباني في (صحيح الجامع-3205) و (تخريج المشكاة-765)).

ولهذا الأصل أدلة وشواهد لا تحصى كثرة (من أجمع الكتب المؤلفة في ذلك كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية والفصل الخاص بحرمة التشبه بالكفار من (حجاب المرأة المسلمة) للألباني)، والمراد هنا التنبيه على أن الأمة الإسلامية يجب أن تكون أمة مستقلة في كل شيء: المنهج والعبادة، والسلوك والآداب والعبادات، وحتى اللباس والمظاهر والعادات.

18- وأرجو أن أكون بهذه المقدمة قد أوضحت جانباً من هذه القضية: قضية الالتزام بالكتاب والسنة عقيدة وعبادة، وسلوكاً وآداباً بالمشروع فقط.

الصحابة رضوان الله عليهم والأصلان السابقان:

19- فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأصل الأصيل لأنـه مقتضـى قـولهم "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فاتبعوا هذا الأصل، وكانوا حراساً له، فمـا شـاهدوا انحرافاً ولو يسيراً إلا شددوا نكيرهم على فاعليـه، وبـتروه من أصـله. ومن أكـبر الأدلة على ذلك أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه دخل المسـجد في الكوفـة فرأى حلقاً، وفي وسط كل حلقة كوماً من الحصى، ورجـل قـائم على كـل حلقـة يقول لهم: سبحوا مئة فيسبحون مئـة. احمـدوا مئـة فيحمـدون مئـة، كـبروا مئـة، فيكبرون مئة؛ فقال لهم ابن مسعود رضي الله عنه: يا قوم! والله لأنتم على ملة هي أهدى من ملة رسول صلى الله عليـه وسـلم أو مقتحمـوا بـاب ضـلالة (رواه الدارمي (1/68) بتمامه مع بعض اختلاف، وإسناده جيد، وصححه أستاذنا الألبـاني في رسـالة (الـرد على التعقب الحـثيث ص45))، وهـذه قضـية منطقيـة سـليمة، فهؤلاء إما أن يكونوا أهدى من الرسول صلى الله عليـه وسـلم، لأنهم قـد وفقـوا لعمل لم يصل إليه علم رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم، وإمـا أن يكونـوا في ضلالة، والفرض الأول منتف حتماً، لأنه لا أحد أفضل من رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم، فلم يبق إلا الفرض الآخر، وهو أنهم قد اقتحموا باب ضـلالة، فقـالوا: والله يا أبا عبدالرحمن مـا أردنـا إلا الخـير، وهـذا دليـل منهم على صـلاح نيـاتهم، وإرادتهم وجه الله تبارك وتعالى بهذا العمـل المبتـدع. ولكن عبداللـه بن مسـعود قال لهم: "وكم من مريد للخير لم يبلغه"!! وهذا معنـاه أن النيـة وحـدها لا تكفي لتصحيح الفعل، بل لا بد أن ينضاف إلى ذلك التقيد بالمشروع.

20- وبالغ الصحابة رضوان الله عليهم في حماية جنـاب الـدين وجانبـه أن يـدخل فيه الغريب، وما ليس منه حتى يصفو للنـاس التـأدب بـالأدب الخـالص، والتخلـق بالخلق الكامل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فطرد علي بن أبي طالب رضي الله عنه القصاصين من المساجد، وهم الوعـاظ الـذين يعظـون الناس، ويزعمون ترقيق قلوبهم بالقصص الخيالي، والحكايات والأسـاطير، وأنكـر ابن عمر على رجل عطس، فقال: الحمد لله والصلاة والسـلام على رسـول اللـه قائلاً له: "ما هكذا علمنا رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم بـل قـال إذا عطس أحدكم فليحمد الله ولم يقل: وليصل على رسوله"!! (رواه بنحوه الترمـذي (8/9 تحفة) وفيه ضعف، ورواه أيضـاً الطـبراني والـبزار فينظـر اسـناده فيهمـا، فلعلـه يقوى به).

الحقائق.. والموازين:

وبمجموع هذه الأدلة يتضح لنا الحقائق التالية لفهم قضية الكتاب والسنة:

أولاً: الهدى هو ما كان من الله سبحانه وتعالى ورسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم فقط {قل إن هدى الله هو الهدى} {فماذا بعد الحق إلا الضلال}.

وإن هذا الهدى محصور في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقـط، وليس وراء هذا طريق ثالث يقرب إلى الله، ويباعد عن النار.

ثانياً: إن كل عقيدة تخالف كتاب الله وسنة رسوله هي عقيدة باطلة يجب حربهـا والقضاء عليها.

ثالثاً: إن كل زيادة أو نقص في تشريع العبـادات والسـلوك يـراد بـه التقـرب إلى الله تبارك وتعالى، وإصلاح النفس إنما هو بدعة مرفوضة، حتى لو كان صدر هـذا ممن ينتسبون إلى الإسلام ويدعون إليه.

رابعاً: إن كل من ادعى علماً غيبياً في كتـاب اللـه وسـنة رسـوله، زاعمـاً أنـه قـد وصل بطريق الجن أو الفيض أو الفتح، أو الاتصال بالسماء إنما هو كاذب مارق.

خامساً: إن أقوال العلماء في أمور الدين لا تؤخذ قضية مسلمة قط، بل لا بد من عرضها على الكتاب والسنة، فما وافق أخذ وما خالف ذلك رد، وإذا جاز لنا أحياناً الأخذ بها والعمل بهـا إذا لم نعلم الـدليل، فإنمـا ذلـك إلى حين معرفتنـا بالـدليل، ومتى عرفنا الدليل حكمنا به على القول.

سادساً: إن الصحابة رضوان الله عليهم كـانوا أعبـد النـاس، وأتقى النـاس، وأنهم تحققوا بهذين الأصلين: الكتاب والسنة، وأن من كان على مثل ما كانوا عليه فقد اهتدى، ومن شذ يميناً أو يساراً فقد ضل.

الباب الثاني

مجمل تاريخ الشريعة الصوفية

الفصل الأول

لمحة سريعة عن تاريخ التصوف

لا يعرف على وجه التحديد من بدأ التصوف في الأمة الإسلامية ومن هو أول متصوف وإن كان الإمام الشافعي رضي الله عنه عندما دخل مصر قال: تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع.. والزنادقة الذين عناهم الشافعي هنا هم المتصوفة (والسماع) هو الغناء والمواجيد والمواويل التي ينشدونها ومعلوم أن الشافعي دخل مصر سنة 199هـ وكلمة الشافعي توحي بأن قضية السماع هذه قضية جديدة ولكن أمر هؤلاء الزنادقة يبدو أنه كان معلوماً قبل ذلك. بدليل أن الشافعي قال كلاماً كثيراً عنهم كقوله مثلاً (لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يكون أحمق) (تلبيس إبليس لابن الجوزي ص370) وقال أيضاً: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد إليه عقله أبداً (المصدر السابق ص370)، وكل هذا يدل على أنه قد كان هناك قبل نهاية القرن الثاني الهجري فرقة معلومة عند علماء الإسلام يسمونهم أحياناً بالزنادقة وأحياناً بالمتصوفة..

وأما الإمام أحمد فقد كان معاصراً للشافعي وتلميذاً له في أول الأمر فقد أثر عنه أقوال كثيرة في التنفير من أفراد معينين نسبوا إلى التصوف. كقوله في رجل جاء يستفتيه في كلام الحارث المحاسبي: قال أحمد بن حنبل: "لا أرى لك أن تجالسهم" وذلك بعد أن اطلع أحمد بن حنبل على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها للبكاء -ومحاسبة النفس كما يزعمون- والكلام على الوساوس وخطرات القلوب. فلما اطلع الإمام أحمد على ذلك قال لسائله محذراً إياه من مجالستهم وكتبهم "إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات". والذي يبدو أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال هذا الكلام في مطلع القرن الثالث، ولكن هذا القرن ما كاد يكتمل حتى ظهر التصوف على حقيقته، وانتشر في الأمة انتشاراً ذريعاً، واستطاع المتصوفة أن يظهروا ما كانوا يخفونه سابقاً.

والمطلع على الحركة الصوفية من أول نشأتها إلى حين ظهورها العلني على ذلك النحو يجد أن أساطين الفكر الصوفي جميعهم بلا استثناء في القرن الثالث والرابع الهجريين كانوا من الفرس ولم يكن فيهم عربي قط، وعند مقابلة الدين الصوفي ستجد أن التصوف هو الوجه الآخر للتشيع (اقرأ الفصل الخاص بذلك: الصلة بين التصوف والتشيع) وأن أهداف التصوف والتشيع كانت واحدة تقريباً، في السياسة والدين،،..، والمهم هنا هو التذكير بأن التصوف بلغ غايته وذروته من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث حيث استطاع الحسين بن منصور الحلاج أن يظهر معتقده على الملأ ولذلك أفتى علماء العصر بكفره وقتله فقتل سنة 309هـ وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخرون فلم يظهروا ما أظهر الحلاج.. وسيأتي وصف تفصيلي لعقيدة الحلاج عند بيان العقيدة الصوفية.

وعلى الرغم من ذلك فإن الصوفية ظلت تواصل انتشارها في أرض فارس على الخصوص ثم العراق.. وساعد على انتشارها في فارس أن أقام رجل يسمى أبو سعيد الميهني نظاماً خاصاً للخانات الذي أصبح فيما بعد مركزاً للصوفية، وقلده

في ذلك عامة رجال التصوف ومن هنا نشأت في منتصف القرن الرابـع الهجـري بدايات الطرق الصوفية التي سرعان ما انتشرت في العـراق ومصـر، والمغـرب، وفي القرن السادس ظهرت مجموعة من رجال التصوف كل منهم يزعم أنه من نسل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم واسـتطاع كـل منهم أن يقيم لـه طريقـة صوفية خاصة وأتباعاً مخصوصين، فظهر الرفاعي في العراق، والبدوي في مصـر وأصله من المغرب ولا يعرف له أم ولا أب ولا أسرة ولا هو من المغرب، وكـذلك الشاذلي في مصر وأصله كذلك من المغرب. وتتابع ظهور الطرق الصوفية الـتي تفرعت من هذه الطرق، وفي القرون السادس والسـابع والثـامن.. بلغت الفتنـة الصوفية أقصاها وأنشئت فرق خاصة بالدراويش وظهر المجاذيب وبـنيت القبـاب على القبـور في كـل ناحيـة، وذلـك بقيـام الدولـة الفاطميـة في مصـر وبسـط سـيطرتها على أقـاليم واسـعة من العـالم الإسـلامي، وبنائهـا للمـزارات والقبـور المفـتراة كقـبر الحسـين بن علي رضـي اللـه عنهمـا في مصـر والسـيدة زينب، وإقامتهم بعد ذلك الموالد والبدع والخرافات الكثيرة، وتأليههم في النهاية للحاكم بأمر الله الفاطمي؛ لقـد بـدأت الـدعوة الفاطميـة بـالمغرب لتكـون بـديلاً للحكم العباسي السني، واستطاعت هذه الدولة تجنيد هذه الفرق الصوفية وغزو العـالم الإسلامي بهذه الجيوش الباطنية التي كـان لهـا أعظم الأثـر بعـد ذلـك في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام كما ستطالعه بأدلته في هذه الرسالة.

وأخيراً عم الخطب وطم في القرون المتأخرة التاسع والعاشر والحادي عشـر إذ ظهرت آلاف الطرق الصوفية، وانتشرت العقيدة والشـريعة الصـوفية في الأمـة، واستمر ذلك إلى عصر النهضة الإسلامية الحديثة.

لقد بدأت طلائع هـذه النهضـة ومقـدماتها في آخـر القـرن السـابع وبدايـة القـرن الثامن على يد الإمام المجدد أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني الـذي صـاول كل العقائد المنحرفة بقلمه وبيانه ومن جملـة ذلـك عقائـد المتصـوفة وشـرائعهم المبتدعـة ولاقى في هـذا مـا لاقى (اقـرأ الفصـل الخـاص بمنـاظرة ابن تيميـة للرفاعية البطائحية) وجاء تلاميذه من بعده مجاهدين في هذا الصـدد كـابن القيم، وابن كثير، والحافظ الذهبي، والحافظ المزني، وغيرهم،.. ولكن شـوكة التصـوف والتخريف والعقائد الباطلة كانت قد تمكنت من الأمـة تمكنـاً عظيمـاً، ولكن اللـه سبحانه وتعالى هيأ للأمة في القرن الثاني عشر الهجري الإمام الجليل محمـد بن عبـدالوهاب الـذي تتلمـذ على كتب شـيخ الإسـلام ابن تيميـة فقـام مصـاولاً هـذا الباطل الذي عم الآفاق وقد حقق الله على يديه ظهور النهضة الإسلامية الحديثـة فقد استجاب لدعوته المخلصون في كل أنحاء العالم الإسلامي وتردد صـداها في الهند والسودان ومصر والشام وكل بلاد الإسلام، ومنذ ذلك الوقت بدأت الحركـة الصوفية تتعرى أوراقها شـيئاً فشـيئاً، وتبـدد عقيـدة التوحيـد ظلامهـا، وتزيـل من نفوس الأمة ترهاتها وخرافاتها..

واليوم بحمد الله يكتسح طوفان الحق جيش الباطل ويعود التصـوف مـرة أخـرى إلى الإنجحار والاستتار كما بدأ وكمـا هـو دائمـاً شـأن العقائـد الباطنيـة، ولكن مـا زالت دولـة الصـوفية قويـة في أنحـاء كثـيرة من العـالم الإسـلامي وخاصـة في أفريقيا ودول من آسيا. حيث العربية غير معلومة وحيث الجهـل بالتوحيـد والـدين الصحيح ما زال قائمـاً، ثم إن رمـوز التصـوف مـا زالت موجـودة وأعـني برمـوزه القبور والمزارات والشيوخ الضالين والعقائد الفاسدة؛ كل ذلك مـا زال موجـوداً، وهـو يحتـاج إلى جهـد جهيـد، وجهـاد طويـل لاقتلاع آثـاره في القلـوب والنفـوس والأرض. وفي الفصل الخاص بالطرق الصوفية سـيرى القـارئ بعض هـذا الواقـع القائم إلى اليوم.

..هذه لمحة سريعة مجملة لنشأة الفكر الصوفي وتطوره..

الفصل الثاني

لمحة عن العقيدة والشعائر الصوفية

تختلف العقيدة الصوفية في صورتها الأخيرة عن عقيدة الكتاب والسنة من كل وجه من حيث التلقي والمصادر أعني مصدر المعرفة الدينية؛ ففي الإسلام لا تثبت عقيدة إلا بقرآن أو سنة لكن في التصوف تثبت العقيدة بالإلهام والوحي المزعوم للأولياء والاتصال بالجن الذين يسمونهم الروحانيين، وبعروج الروح إلى السماوات، وبالفناء في الله، وانجلاء مرآة القلب حتى يظهر الغيب كله للولي الصوفي حسب زعمهم، وبالكشف، وبربط القلب بالرسول حيث يستمد العلوم منه في زعمهم، وبلقاء الرسول في اليقظة والمنام حسب زعمهم، وبالرؤى..، وبالجملة فالمصادر الصوفية للغيب كثيرة جداً.

ولما تعددت هذه المصادر على هذا النحو، كانت العقيدة نفسها واسعة متطورة متغيرة مختلفة بل ومتناقضة بين صوفي وصوفي حيث كل منهم يزعم أنه يخبر بما أداه إليه كشفه هو، وما ورد على خاطره وما قاله له الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ألقاه الملك إليه أو اطلع عليه بنفسه في اللوح المحفوظ..

وأما القرآن والسنة فإن للصوفية فيهما تفسيراً باطنياً حيث يسمونه أحياناً تفسير الإشارة، ومعاني الحروف فيزعمون أن لكل حرف في القرآن معنى لا يطلع على معناه إلا الصوفي المتبحر، المكشوف عن قلبه.. وعلى هذا الأساس كان للمتصوفة دينهم الخاص الذي يختلف في أصوله وفروعه عن الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه باختصار هي جملة عقائدهم في الله والرسول والأولياء والجنة والنار وفرعون وإبليس، وكذلك جملة اعتقاداتهم في الشرائع.

1- عقيدتهم في الله:

يعتقد المتصوفة في الله عقائد شتى منها الحلول كما هو مذهب الحلاج، ومنها وحدة الوجود حيث لا انفصال بين الخالق والمخلوق وهذه هي العقيدة الأخيرة التي انتشرت منذ القرن الثالث وإلى يومنا هذا وأطبق عليها أخيراً كل رجال التصوف وأعلام هذه العقيدة كابن عربي وابن سبعين، والتلمساني، وعبدالكريم الجيلي، وعبدالغني النابلسي، وعامة رجال الطرق الصوفية المحدثين.

2- وفي الرسول صلى الله عليه وسلم:

يعتقد الصوفية في الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً عقائد شتى فمنهم من يزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصل إلى مرتبتهم وحالهم، وأنه كان جاهلاً بعلوم رجال التصوف كما قال البسطامي: (خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله) ومنهم من يعتقد أن الرسول محمد هو قبة الكون وهو الله المستوي على العرش وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وأنه هو أول موجود وهو المستوي على عرش الله وهذه عقيدة ابن عربي ومن جاء بعده.

3- وفي الأولياء:

يعتقـد الصـوفية في الأوليـاء عقائـد شـتى فمنهم من يفضـل الـولي على النـبي وعامتهم يجعل الولي مساوياً لله في كل صفاته فهو يخلق ويرزق ويحـيي ويميت ويتصرف في الكون ولهم تقسيمات للولاية فهناك الغوث المتحكم في كل شـيء في العالم، والأقطاب الأربعـة الـذين يمسـكون الأركـان الأربعـة في العـالم بـأمر الغوث، والأبدال السبعة الذين يتحكم كل واحد منهم في قارة من القارات السبع بأمر الغوث والنجباء كل واحد منهم يتصرف في ناحيـة تتحكم في مصـائر الخلـق ولهم ديوان يجتمعون فيه في غار حراء كل ليلة ينظرون في المقادير، وباختصار؛ الأولياء عالم خرافي كامل.

هـذا بـالطبع خلاف الولايـة في الإسـلام الـتي تقـوم على الـدين والتقـوى وعمـل الصالحات والعبودية الكاملة لله والفقر إليـه وأن الـولي لا يملـك من أمـر نفسـه شيئاً فضلاً عن أنه يملك لغيره قال تعالى لرسوله {قل إني لا أملك لكم ضـراً ولا رشداً} (الجن:21).

4- وفي الجنة والنار:

وأما الجنة فإن الصوفية جميعاً يعتقدون أن طلبهـا منقصـة عظيمـة وأنـه لا يجـوز للولي أن يسعى إليها ولا أن يطلبها ومن طلبها فهو ناقص، وإنمـا الطلب عنـدهم والرغبـــة في الفنـــاء المزعـــوم في اللـــه، والإطلاع على الغيب والتصـــريف في الكون.. هذه جنة الصوفي المزعومة.

وأما النار فإن الصوفية يعتقدون أيضاً أن الفرار منها لا يليق بالصوفي الكامل لأن الخوف منها طبع العبيد وليس الأحرار بل منهم من تبجح أنه لـو بصـق على النـار لأطفأها، كما قال البسطامي. وأما من يعتقد بوحدة الوجود منهم فإنـه يعتقـد أن النار بالنسبة لمن يدخلها تكون عذوبة ونعيمـاً لا يقـل عن نعيم من يـدخل الجنـة. وهذه عقيدة ابن عربي كما ذكر ذلك في الفصوص.

5- وفي إبليس وفرعون:

وأما إبليس فيعتقد عامة الصوفية أنه أكمل العباد وأفضل الخلـق توحيـداً لأنـه لم يسجد إلا لله بزعمهم وأن الله قد غفر له ذنوبـه وأدخلـه الجنـة، وكـذلك فرعـون عندهم أفضل الموحـدين لأنـه قـال {أنـا ربكم الأعلى} فعـرف الحقيقـة لأن كـل موجود هو الله ثم هو في زعمهم من آمن ودخل الجنة.

وأما الشعائر الصوفية:

1- ففي العبادات:

يعتقد الصوفية أن الصـلاة والصـوم والحج والزكـاة هي عبـادات العـوام وأمـا هم فيسمون أنفسهم الخاصة، أو خاصة الخاصة ولذلك فإن لهم عبادات مخصوصة.

وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصة بهم كالذكر المخصوص بهيئات مخصوصـة، والخلوة والأطعمة المخصوصة، والملابس المخصوصة والحلقات الخاصة.

وإذا كانت العبادات في الإسلام لتزكية النفس وتطهير المجتمع فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة حسب زعمهم، والفنـاء فيـه واستمداد الغيب من الرسول والتخلق بأخلاق الله حـتى يقـول الصـوفي للشـيء كن فيكون ويطلع على أسـرار الخلـق، وينظـر في كـل الملكـوت، ويتصـرف في الكون.

ولا يهم في التصوف أن تخالف الشريعة الصوفية ظاهر الشريعة المحمدية الإسلامية. فالحشيش والخمر واختلاط النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر كل ذلك لا يهم لأن للولي شريعته تلقاها من الله مباشرة فلا يهم أن يوافق ما شرعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأن لكل واحد شريعته فشريعة محمد للعوام وشريعة الصوفي للخواص.

2- وفي الحلال والحرام:

وكذلك الشأن في الحلال والحرام فأهل وحدة الوجود في الصوفية لا شيء يحرم عندهم لأن لكل عين واحدة.. ولذلك كان منهم الزناة واللوطية، ومن يأتون الحمير جهاراً نهاراً. ومنهم من اعتقد أن الله قد أسقط عنه التكاليف وأحل له كل ما حرم على غيره.

3- وفي الحكم والسلطان والسياسة:

وأما في الحكم والسلطان والسياسة فإن المنهج الصوفي هو عدم جواز مقاومة الشر ومغالبة السلاطين لأن الله في زعمهم أقام العباد فيما أراد.

4- وفي التربية:

ولعل أخطر ما في الشريعة الصوفية هو منهجهم في التربية حيث يستحوذون على عقول الناس، ويلغونها وذلك بإدخالهم في طريق متدرج يبدأ بالتأنيس، ثم بالتهويل والتعظيم بشأن التصوف ورجاله ثم بالتلبيس على الشخص ثم بالزرق إلى علوم التصوف شيئاً فشيئاً ثم بالربط بالطريقة وسد جميع الطرق بعد ذلك للخروج.

ولكن كيف بدأت هذه العقائد الصوفية وتطورت على هذا النحو..؟!

تعالوا نشاهد كيف بدأت العقيدة الصوفية وتطورت..

الباب الثالث

نشأة العقيدة الصوفية وتطورها

الفصل الأول

طريق الهداية الصوفي

لم يصل في -حدود علمي- أحد ممن بحث في التصوف إلى معرفة الرجل الأولي الذي تسمى باسم (الصوفي) في الإسلام ولا من وضع اللبنات الأولى لهذا الفكر.

ولا شك أن التصوف منهج نشأ قبل الإسلام فكراً وسلوكاً وعقيدة، وأنه كان في كل الأمم والديانات وخاصة في البرهمية الهندوكية والفلسفة الإشراقية اليونانية والمجوسية الفارسية، وكذلك نشأت النصرانية -ولا شك أن التصوف غير الرهبانية وغير الزهد كما سنعلم تفصيلاً- ثم انتقل بعد ذلك إلى الفكر الإسلامي عن طريق الزنادقة المجوس، وأخذ مجراه في واقع الأمة الإسلامية وتطور حتى بلغ شأوه وألفت مصادره، ووضعت أصوله وقواعده النهائية في القرن الرابع والخامس الهجري.

ولكن بعض الكتاب ظن أن هناك صلة بين التصوف والزهد، ولذلك نسب إلى التصوف كل من عرف بالزهد والرغبة عن الدنيا، والإقبال على الله كإبراهيم وكالفضل بن عياض، وعبدالله بن المبارك وبشر الحافي وإبراهيم بن أدهم ونحوهم من العباد والزهاد.. والذي ساعد في هذا الخلط بين الزهد والتصوف أن الذين وضعوا طبقات الصوفية جعلوا أمثال هؤلاء أئمة في هذا الشأن، بل تجاوز بعضهم الحدود من أمثال الشعراني، وجعل الخلفاء الراشدين هم أو رجال في طبقات الصوفية وحاشاهم..

والحال أنه شتان ما بين الزهد والتصوف فالزهد في الدنيا فضيلة وعمل مشروع مستحب وهو خلق الأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين الذين يؤثرون ما عند الله على التنعم، والتلذذ والانشغال بالمباحات، بل يتركون بعض الطيبات في المباحات طمعاً فيما عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} وقال أيضاً: {ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً}.

وفي الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها قالت "كان يأتي الهلال والهلال والهلال ثلاثة أهلة في شهرين ولا يوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار". قيل فما كان طعامكم: قالت "الأسودان التمر والماء"..

وهذا لكمال زهدهم، ورغبتهم عن الدنيا. وأما التصوف فمنهج آخر لأن الصوفي إذا تحقق في صوفيته يصبح الزهد عنده شيئاً لا معنى له، فهو قد يحتاج الزهد فقط في أول الطريق الصوفي ثم في النهاية عليه أن يعب من كل ما قدر عليه ولو كان حراماً في الشرع خمراً أو زنا، أو حتى إتياناً للذكران لأن عقيدة وحدة الوجود لا تجعل في النهاية فرقاً بين الزنديق والصديق، ولا بين الأخت والأجنبية، ولا بين الملَك والشيطان، بل ولا بين العبد والرب على حد قول ابن عربي المهندس الأخير للفكر الصوفي:

العبد رب والرب عبد ياليت شعري من المكلف؟!

إن قلت عبد فذاك ربٌّ وإن قلت رب أنى يكلف؟!

وهذا سيأتي تفصيله وبيانه، والشاهد هنا أن هناك فرقاً هائلاً بين الزهد الذي هو فضيلة ونهاية في الشريعة الإسلامية وبين التصوف الذي قد يجعل الزهد من شعائره ولكنه للمبتدئين فقط وأما في النهاية فيجب عند الصوفي أن يتمتع بكل ما قدر عليه.

وأعود فأقول أنه لا يعرف بالتحديد من أول من تسمى بالصوفي حقيقة في الإسلام وكنت في الطبعة الثانية من الكتاب لما قرأت ما كتبه أبو عبدالرحمن السلمي صاحب طبقات الصوفية عن إبراهيم بن أدهم وما روي بإسناده من حكايات شممت منها بدايات هذا الفكر وأول بذوره وقرأت ترجمة إبراهيم بن أدهم فوجدت أن أئمة الجرح والتعديل منهم من يوثقه ومنهم ينسبه إلى الخرافة والجهل بشرع الله فغلب على ظني أنه ربما كان الرائد الأول الذي وضع البذرة الصوفية..

ولقد لفت نظري بعد ذلك كثير من الأخوة أن شيخ الإسلام ابن تيمية أثنى على إبراهيم بن أدهم فكيف يكون منتمياً إلى هذا المنهج وكنت قد قرأت ما كتبه شيخ الإسلام رحمه الله وقد رأيت أنه ربّما يثني على شخص ما من أجل موقف صحيح في العقيدة، وهو قد لا يرضى عنه في موقف آخر بل إنه كثيراً ما يستدل بأقوال النصارى واليهود إذا وافقت شيئاً من الحق..

وبعد أن أعدت النظر وجدتُ أن كلام أئمة الجرح والتعديل لا يرقى إلى اتهام إبراهيم بن أدهم رحمه الله بشيء مما وضعه المتصوفة في عقائدهم ومناهجهم، وأما الحكايات التي رويت عنه والموجودة في طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي فإنه لا يعول عليها في الجرح والتعديل لأن أبا عبدالرحمن السلمي نفسه قد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يضع الحكايات للصوفية ولعل ذلك بل هذا هو الظاهر أن هذا مما كذبه وافتراه على إبراهيم بن أدهم رحمه الله.

وعلى كل حال فيعلم الله أن قصدي من تأليف الكتاب هو بيان الفكر الصوفي من حيث هو مدون ومسطور في كتب القوم وبيان ما فيه من الباطل والتغرير، وأنا أعلم أيضاً أن الذين وضعوا هذا الفكر قد كذبوا على كثير من فضلاء الناس، وزهاد الأمة وليس قصدنا عداوة مع هؤلاء الفضلاء فنعوذ بالله أن نؤذي مسلماً بلسان أو يد.. وإنما مقصدنا الذب عن عقيدة الإسلام وشريعة سيد المرسلين وبيان ما في هذا الفكر من الانحراف، وما في هذه الحكايات من الباطل.

ومرة أخرى أقول لا نستطيع أن نجزم من هو أول شخص تسمى باسم الصوفي في الإسلام، وألقى بالكلمات الأولى والقواعد الأولى ليؤسس هذا المنهج. ولا شك أن ذلك كان في منتصف أو أوائل القرن الثاني من الهجرة. فإن الإمام الشافعي المتوفي سنة 205هـ يقول: "تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع" أ.هـ

(والزنادقة) هنا هم الصوفية (والسماع) هو الغناء والأناشيد التي كانوا يتجمعون عليها، ولا شك أن ظهور الصوفية بهذه البدعة لم يكن وليد سنة أو سنتين إنما كان وليد سنوات تطورت بدعة الصوفية حتى استطاعوا أن يعلنوا بدعتهم بالغناء والطرب بالدفوف ونحو ذلك في عاصمة الخلافة ببغداد، ولا شك أن مثل هذه المظاهر والعقائد المنافية للإسلام الصحيح بدأت دعوة سرية ثم تطورت واستفحل شرها، وأعلن عنها أصحابها ومن أجل ذلك لا يعلم على القطع والحقيقة الرائد الأول للفكر الصوفي في الإسلام وواضع لبناته الأولى..

ومما يدل على أن الأمر كان سرياً في أوله مـا روي عن الإمـام أحمـد أنـه سـمع الحارث المحاسبي يجتمع مع جماعة في منزل من المنـازل وأنهم يقضـون ليلهم في البكاء ومحاسبة النفس والكلام على الخطرات والوسواس وأن الإمام أحمــد بعـد أن اسـتمع إليهم خلسـة من مـنزل مجـاور أصـبح يقـول: نفـروا النـاس عن الحارث المحاسبي، وقال لمن سأله هل يجلس معهم ويقضي الليـل معهم قـال: لا أرى لك أن تجالسهم.

والشاهد أن هذه البدعة لا شك أنها بدأت سرية ثم تطورت واستعلنت.

ونعود إلى أبي عبدالرحمن السلمي المتوفي سـنة 412هــ والـذي لفـق حكايـات الصوفية ووضعها على ألسنة المشايخ السابقين لنجد أنه جعـل إبـراهيم بن أدهم رائداً ومؤسساً لبدايات هذا الفكر..

نأتي إلى حكايات السلمي لنناقش هذه الحكايات لا من حيث ثبوتهـا ونفيهـا ولكن من حيث أنها قد أصبحت هي العماد الذي قـام عليـه هـذا الفكـر.. نـأتي لننـاقش هذه الحكايات على ضوء الكتاب والسنة لنرى ما فيها من الباطل ولنعـرف كيـف بدأ هذا الفكر وتطور:

1- قال أبو عبدالرحمن السلمي (توفي سنة 412هـ): "سمعت أبا العباس محمــد بن الحسن الخشاب قال حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد المصري، قال حدثني أبو سـعيد أحمـد بن عيسـى الخـراز قـال: حـدثنا إبـراهيم بن بشـار قـال: صـحبت إبـراهيم بن أدهم بالشـام، أنـا وأبـو يوسـف الغسـولي، وأبـو عبداللـه السنجاري، فقلت: يا أبا إسحاق! خبرني عن بدء أمرك كيف كان؟ قال: كـان أبي من ملوك خراسان، وكنت شاباً فركبت إلى الصيد، فخرجت يومـاً على دابـة لي، ومعي كلب، فـأثرت أرنبـاً أو ثعلبـاً، فبينمـا أنـا أطلبـه، إذ هتـف بي هـاتف لا أراه، فقـال: يـا إبـراهيم: ألهـذا خلقت؟ أم بهـذا أمـرت؟ ففـزعت، ووقفت، ثم عـدت فركضت الثانية، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرات، ثم هتف بي هـاتف من قربـوس (قربوس: كحلزون، حنو السرج ومنعطفه، وهما قربوسان) السرج: والله ما لهـذا خلقت، ولا بهذا أمرت. قال: فـنزلت فصـادفت راعيـاً لأبي يـرعى الغنم، فأخـذت جبته الصوف، فلبستها ودفعت إليه الفـرس، ومـا كـان معي، وتـوجهت إلى مكـة فبينما أنا في البادية، إذ أنا برجل يسير ليس معه إناء ولا زاد، فلما أمسى وصـلى المغرب، حرك شفتيه بكلام لم أفهمه، فإذا أنا بإناء فيه طعام، وإناء فيـه شـراب، فأكلت وشرب، وكنت معه على هذا أياماً، وعلمني "اسـم اللـه الأعظم" ثم غـاب عني وبقيت وحدي، فبينما أنا ذات يوم مسـتوحش من الوحـدة، دعـوت اللـه بـه، فإذا أنا بشخص آخذ بحجزتي وقـال: سـل تعطـه!! فراعـني قولـه، فقـال: لا روع عليك أنا أخوك الخضر، إن أخي داود علمك اسم الله الأعظم، فلا تـدعو بـه على أحد بينك وبينه شحناء، فتهلكه هلاك الدنيا والآخـرة، ولكن ادعُ اللـه أن يشـجع بـه جبنك ويقوي به ضعفك، ويؤنس بـه وحشـتك، ويجـدد في كـل سـاعة رغبتـك، ثم انصرف وتركني" (طبقات السلمي (29-31)).

وهذا خبر آخر:

2- "سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول: سمعت علي بن الحسن بن أحمــد المصري يقول: سـمعت أحمـد بن عيسـى الخـراز يقـول: حـدثني غـير واحـد من أصحابنا منهم: سعيد بن جعفر الـوراق، وهـارون الآدمي، وعثمـان النجـار، قـالوا: حــدثنا عثمــان بن عمــارة قــال حــدثني إبــراهيم بن أدهم عن رجــل من أهــل الإسكندرية يقال له أسلم بن يزيد الجهني قال: لقيته بالإسكندرية فقـال لي: من

أنت يا غلام؟ قلت: شاب من أهل خراسـان. قـال: ومـا حملـك على الخـروج من الدنيا؟ قلت زهداً فيها، ورجاء لثـواب اللـه تعـالى. فقـال: إن العبـد لا يتم رجـاؤه لثواب الله تعالى حتى يحمل نفسه على الصبر. فقال رجل ممن كـان معـه: وأي شيء الصبر؟ فقال: إن أدنى منازل الصبر أن يـروض العبـد نفسـه على احتمـال مكاره الأنفس. قال: قلت: ثم مه؟ قال: إن كان محتملاً للمكاره أورث الله قلبــه نوراً. قلت: وما ذلك النور؟ قال: سراج يكون في قلبه، يفرق بين الحق والباطل، والناسخ والمتشابه، قلت: هـذه صـفة أوليـاء رب العـالمين. قـال: اسـتغفر اللـه، صدق عيسى بن مريم عليه السلام حين قال: لا تضـعوا الحكمـة عنـد غـير أهلهـا فتضيعوها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها!!

فبصصت إليه، وطلبت إليه، وطلب معي أصحابه إليـه، فقـال عنـد ذلـك: يـا غلام إياك إذا صحبت الأخيـار أو حـادثت الأبـرار أن تغضـبهم عليـك، فـإن اللـه يغضـب لغضبهم، ويرضى لرضاهم، وذلك أن الحكماء هم العلماء، وهم الراضون عن اللـه عز وجل إذا سخط الناس، وهم جلساء الله غداً بعد النبيين والصديقين.

يا غلام احفظ عني واعقل، واحتمـل ولا تعجـل، فـإن التـأني معـه الحلم والحيـاء، وإن السفه معه الخرق والشؤم، قال: فسـالت عينـاي، وقلت: واللـه مـا حملـني على مفارقة أبوي، والخروج من مالي، إلا حب الأثـرة للـه، ومـع ذلـك الزهـد في الدنيا، والرغبة في جوار الله تعالى.

قال: فإياك والبخل، قلت: وما البخل؟ فقال: أما البخـل عنـد أهـل الـدنيا فهـو أن يكون الرجل بخيلاً بماله، وأما الذي عند أهل الآخرة فهو الـذي يبخـل بنفسـه عن الله تعالى. ألا وإن العبد إذا جاد بنفسـه للـه، أورث قلبـه الهـدى والتقى، وأعطى السكينة والوقار والعلم الراجح، والعقل الكامل، ومع ذلك تفتح له أبواب السماء، فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحـاً، فقـال لـه رجـل من أصـحابه: "اضـربه فأوجعـه، فإنـا نـراه غلامـاً قـد وفـق لولايـة اللـه تعالى!!" قال: فتعجب الشيخ من قول أصـحابه: "لقـد وفـق لولايـة اللـه تعـالى" فقال لي: يا غلام أما إنك ستصـحب الأخيـار، فكن لهم أرضـاً يطـأون عليهـا، وإن ضربوك وشتموك وطردوك، وأسـمعوك القـبيح، فـإن فعلـوا بـك ذلـك ففكـر في نفسك: من أين أتيت، فإنك إذا فعلت ذلـك يؤيـدك اللـه بنصـره، ويقبـل بقلـوبهم عليـك، واعلم أن العبـد إذا قلاه (أي كرهـه) الأخيـار، واجتنب صـحبته الورعـون وأبغضه الزاهدون، فإن ذلك استعتاب من الله تعالى لكي يعتبـه، فـإن أعتب اللـه عز وجل أقبل بقلوبهم عليه، وإن تمرد على الله أورث قلبه الضلالة، مـع حرمـان الرزق، وجفاء من الأهل، ومقت من الملائكة، وإعراض من الرسل بوجـوههم، ثم لم يبال في أي واد يهلكه.

قـال: قلت: إني صـحبت -وأنـا مـاش بين الكوفـة ومكـة- رجلاً فرأيتـه إذا أمسـى يصلي ركعتين فيهما تجاوز، ثم يتكلم بكلام خفي بينه وبين نفسه، فـإذا جفنـة من ثريد عن يمينه، وكوز من ماء، فكان يأكل ويطعمني. قال: فبكى الشيخ عند ذلك، وبكى من حوله، ثم قال: يا بني أو يا أخي ذاك أخي داود، ومسـكنه من وراء بلخ، بقرية يقال لها (الباردة الطيبة) وذلـك أن البقـاع تفـاخرت بكينونـة داود فيهـا، يـا غلام: ما قال لـك؟ ومـا علمـك؟ قـال: قلت: علمـني اسـم اللـه الأعظم، فسـأل الشيخ ما هو؟ فقلت: إنه يتعاظم علي أن أنطق به. فـإني سـألت بـه مـرة، فـإذا برجل آخذ بحجزتي وقال: سل تعطـه، فراعـني، فقـال: لا روع عليـك: أنـا أخـوك الخضر، إن أخي داود علمك إياه، فإياك أن تدعو به إلا في بر، ثم قال: يا غلام إن الزاهدين في الدنيا، قـد اتخـذوا الرضـا على اللـه لباسـاً، وحبـه دثـاراً والأثـرة لـه

شعاراً، فتفضّل الله تعالى عليهم ليس كتفضله على غيرهم، ثم ذهب عني. فتعجب الشيخ من قولي، ثم قال: إن الله سيبلغ بمن كان في مثالك ومن تبعك من المهتدين، ثم قال يا غلام إنا قد أفدناك ومهدناك، وعلمناك علماً.

ثم قال بعضهم: يا إلهنا احجبه عنا، واحجبنا عنه، قال إبراهيم: فما أدري أين ذهبوا؟!!!" (أ.هـ من طبقات السلمي بنصه).

لقد وضع من وضع هاتين الحكايتين أصول التصوف، ومنها تفرع الفكر الصوفي فيما بعد، ولنستعرض معاً أصول هذا الفكر:

أولاً: إن الهداية قد جاءت بزعمه لإبراهيم من هاتف هتف به أولاً، ثم من كلام خرج من قربوس السرج، ولست مناقشاً الآن صحة هذه الدعوى أو بطلانها، ولكني أريد أن أذكر الآن أن هذا طريق للهداية يغاير ويخالف الطريق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فالهداية في الإسلام إنما تكون دائماً عن طريق كتاب الله الذي أنزل للناس هدى ونوراً. والدعوة إلى الإيمان في شريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إنما تكون بالحجة والإقناع، وبتقديم الدليل على إعجاز القرآن وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الهداية التي ادعاها أبو عبدالرحمن السلمي لإبراهيم بن أدهم قد حملته على ترك أبيه وأمه وبلدته وخلع ثيابه، (وترك الدنيا) على حد التعبير، وليس ملابس الصوف التي كانت على جسم الراعي، ومن سمي هذا المنهج بالتصوف، وليس من شروط الهداية في الإسلام أن يترك المهتدي الدنيا، ويفر بدينه من وطنه، إلا إذا قابل فيه اضطهاداً أو منعاً من أداء الشعائر، أو كان في بلد كثير المعاصي وأراد النقلة إلى بلد آخر يكثر فيه الصالحون، ولم تكن (بلخ) التي هجرها إبراهيم كذلك؛ لأنه جاء في حكايته أنها مسكن (داود) وأن البقاع قد تفاخرت بكينونة داود فيها، هكذا قال، فكيف تترك هذه البقعة الطيبة، والقرية التي سميت (الباردة الطيبة) التي يسكن فيها داود ويخرج إلى البراري والقفار، وليس من سبب شرعي لهذا التحول؟

ثالثاً: جاء في الحكاية أن إبراهيم لقي رجلاً بالبادية يسير، وليس معه زاد ولا طعام، وأنه صاحبَه، وكان يطعمه من الطعام الذي يأتيه هكذا من الغيب، وأن هذا الرجل علمه اسم الله الأعظم، ثم أخبر أن هذا الرجل إنما هو داود عليه السلام، وأنه لما دعا باسم الله الأعظم حضر الخضر إليه في الحال، وسأله عن طلبه.

ولست أدري شرعاً ما الذي يدعو داود عليه السلام أن يعود إلى الدنيا، (إن كان ذلك في مكنته) ويتجاوز حدود رسالته ونبوته، ليعلم رجلاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم اسم الله الأعظم، مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعمر: [والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني] فكذلك لو عاد داود حياً لوجب أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز له أن يعلم الناس شيئاً من الدين لم يعلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو قائلاً: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله (رواه أحمد (5/349-350) وأبو داود (14993) وغيرهما عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه) الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فقال: صلى الله عليه وسلم : [قد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سأل به أعطى، وإذا دعي به أجاب].

فالرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن اسم اللـه الأعظم في هـذا الـدعاء، وأن الله تبارك وتعالى إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، ولم يقل صلى الله عليه وسلم: إن هذا الإسم من دعا به أتاه الخضر في التو والحال، وقال: سل تعطـه!! هكذا على الإطلاق: اسأل ما بدا لك.. ما أشبه هذا الكلام بالقصص الخرافي الذي يزعم بأن سليمان نبي الله عليه السلام كان له خاتم إذا حركـه أتـاه عفـريت من الجان!!.

ثم لـو فرضـنا صـحة الحكايـة، أليس لنـا أن نسـأل: لمـا خص داود عليـه السـلام إبــراهيم بن أدهم باســم اللـــه الأعظم، ولم يخص بــه أحــداً قبلــه من الصــحابة والتابعين؟.

ثم لماذا يقول الخضر لإبراهيم بن أدهم –كما جاء في الحكاية-: لقد تعلمت اســم الله الأعظم، فلا تدع به على أحد بينكٍ وبينه شحناء، فتهلكه هلاك الدنيا والآخــرة، هكذا وإبراهيم بن أدهم ليس معصوماً، فربما تخاصم مع رجـل مسـلم، فـإذا دعـا باسم الله الأعظم على هذا الرجل هلك هلاك الدنيا والآخرة، وحرم جنة الله، وباء بالنار، لأنه خاصم إبراهيم بن أدهم فقط، وهذا ليس للرسـول، لأن الرسـول دعـا على أناس فقال له الله: {ليس لك من الأمـر شـيء} (آل عمـران:128) (انظـر حديث البخاري في شأن نزول هذه الآية). هـذا مـع أن الحـال في الخصـومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أعدائه إنما هو من أجل العقيدة والــدين، وليس كخصومة غيره من أهل الدنيا.

رابعاً: جـاء في الحكايـة أن إبـراهيم بن أدهم أطلـق على طريقـة ومنهجـه الـذي سلكه في تعبده أنه "الخروج من الدنيا" ولقد علمنا نتائج هذا الخـروج، وهي خلـع ملابسه، ولبس الصوف وترك دياره، ووطنـه، والـدخول في الباديـة، ولن ننـاقش الآن مدى قرب هذا المسلك أو بعده عن الرسالة التي بعث بها محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ولكننا سنناقش الآثار التي ترتبت على ذلـك، وهي الـزعم أن إبراهيم أخبره أسلم بن يزيد الجهني في الإسـكندرية أنـه إذا كـان حقـاً طالبـاً لثواب الله فلا بد له من تحمل الصبر، وأنـه إن فعـل ذلـك أورث اللـه قلبـه نـوراً يفرق به بين الحـق والباطـل، والناسـخ والمتشـابه (هكـذا)!! وهنـا تضـع الحكايـة الأصل الرابع في التصوف، وهو أنه بالمجاهدة والصبر يحصل النـور الـذي يعـرف به علم الحق والباطـل، والناسـخ والمتشـابه!! والمعـروف أن المجاهـدة بالصـبر مهما عظمت لا تعلم الإنسان الآيـات الناسـخة والمنسـوخة، والمحكم والمتشـابه من كلام الله تبارك وتعالى، ولا تجعله يفرق بين حق وباطل، بل لا بد من التعلم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنما العلم بالتعلم] (ذكـره البخـاري في (صحيحه-1/170 من فتح الباري) معلقاً، وبين الحافظ ابن حجر من وصله في شرحه عليه، وحسن إسناده، وأورده أسـتاذنا الألبـاني في (السلسـلة الصـحيحة-342) بأتم منه، وصححه وقال في مختصره لصحيح البخاري (1/28): "هو طرف من حديث رواه ابن خيثمة (114) بسـند صـحيح عن أبي الـدرداء موقوفـاً، ورواه غيره عنه مرفوعاً، وله شاهد من حديث معاويـة") ولم يقـل: إنمـا العلم بالصـبر. وأما أن الله تبارك وتعالى يوفق العامل بعلمه، والقائم بتقواه إلى الهدايـة والعلم فنعم، وذلك بتيسير أسباب العلم الجديد فقوله تعالى : {واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم} (البقرة:282). هي ختام أطول آيـة في كتـاب اللـه، وقـد نزلت بشأن الـدّين وكتابتـه والإشـهاد عليـه، والتعلم المقصـود في الآيـة هـو هـذا التعلم الذي أنزله الله على الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم. ويسـتحيل شـرعاً وعقلاً أن يبلــغ المســلم علم شــيء بالصــبر أو الصــيام مثلاً دون بــذل الســبب

الموصل إلى هذا العلم. فالعلم الشرعي بالتعلم، والعلم الدنيوي أيضاً بالتعلم، وليس شيء من ذلك يورث بالصبر والمجاهدة.

ولا شك أن الحكاية عندما دعت إلى هذا العلم فإنما أرادت علماً آخر، لأنها قالت على لسان أسلم بن يزيد: "وذلك أن الحكماء هم العلماء" فهو يعني طائفة أخرى لها تقاليدها وعاداتها، ومجاهداتها المستقلة وعلمها المستقل أيضاً، وستعلم هذا بأدلته فيما يأتي إن شاء الله تعالى. ولم يعن بالطبع علماء الشريعة الذين يعلمون الكتاب والسنة، لأن علم هؤلاء لا يتأتى إلا بالدرس والنقل والكتابة والحفظ، وسؤال الله الفهم والعمل والتوفيق، وأما طريق القوم الذين عنتهم الحكاية فإنما هو المجاهدة بأسلوب خاص، وعادات خاصة، ومنهج خاص ليصل الإنسان منهم إلى علم خاص، وفهم خاص، ووجد خاص، ولا يستطيع علماء الشريعة مهما بلغ علمهم أن يصلوا إلى شيء منه. وباب هذا العلم الخاص الذي عنته الحكاية هو ما عبر عنه بقوله: "وأن العبد إذا جاد بنفسه لله، أورث قلبه الهدى والتقى، وأعطي السكينة والوقار، والعلم الراجح، والعقل الكامل، ومع ذلك يفتح له أبواب السماء فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحاً"!!.

فهذا العلم الخاص بابه السماء، وينظر أهل هذا العلم إلى فتح هذه الأبواب بقلوبهم حتى لو كانوا مطروحين في طريق الدنيا، وقبل أن نحكم على هذا العلم المزعوم بالصحة أو البطلان لا بد أن نرى نماذج منه، وهذا موعده فيما يأتي إن شاء الله.

خامساً: الغاية التي حددتها هذه الرواية المزعومة لهذا الطريق، وهذا المنهج هو: "والله ما حملني على مفارقة أبوي، والخروج من مالي إلا حب الأثرة لله، ومع ذلك الزهد في الدنيا، والرغبة في جوار الله تعالى" وقد فسر له على حد زعمه أسلم بن يزيد (البخيل) بأنه "الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى".

فالأثرة لله التي جاءت في الحكاية ليست هي حب الله وإيثار مرضاته، والطمع في جنته، وخوف ناره، بل سنعلم بالنصوص والنقول من مقالات القوم أنهم يعنون بالأثرة لله (الفناء به عن كل ما سواه) وعبادته دون رجاء مثوبة، أو خوف عقوبة، وسنعلم كيف تطور هذا الفكر فيما بعد إلى أن أنتج القول بوحدة الوجود، وأن العابد هو عين المعبود!!

سادساً: من الغرائب في الحكاية عن إبراهيم السابقة أنه قال إن أصحاب أسلم بن يزيد الجهني قالوا له: "اضربه فأوجعه، فإنا نراه غلاماً قد وفق لولاية الله عز وجل" وكأن إبراهيم في زعم الحكاية قد فاز بكنز لم يفز به أحد قبله، وهو ولاية الله عز وجل، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه ولي كل مؤمن. قال تعالى: {الله ولي الذين ءامنوا} (البقرة:257) وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري الصحيح أن الله تعالى يقول [من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..، الحديث]. فبين الله تبارك وتعالى طريق ولايته، وهي أداء الفرائض ثم الاستزادة من النوافل، ولم يذكر تبارك وتعالى أن الولاية تأتي بهاتف من قربوس السرج، ثم بلقاء مع داود في البادية وتعليم للاسم الأعظم. وسنعلم في جولتنا القادمة في الفكر الصوفي أن الولاية ستصبح قاصرة على أناس مخصوصين، لهم منهج مخصوص وطريق مخصوص، وأن هذه الولاية سيجزم بها جزماً، وسيدعيها من يدعيها بكل إصرار وتشبث!!.

سابعاً: جاء في الحكاية أن أسلم بن يزيد الجهني نصح إبراهيم قائلاً: "يا غلام أما أنك ستصحب الأخيار، فكن لهم أرضاً يطئون عليك، وإن ضربوك وشتموك، وطردوك وأسمعوك القبيح" ولا نعلم أن صحبة الأخيار تكون كذلك، بل الأخيار إذا صحبتهم أكرموك وسامحوك، وعلموك وقربوك وغفروا إساءتك، وسيعلم القارئ السر وراء هذا المنهج، في النقول القادمة وفي بيان فرعيات هذا المنهج ودروبه.

ثامناً: جاء في الحكاية أن الشيخ وهو أسلم بن يزيد الجهني قال له: "إن الله سيبلغ بمن كان مثالك، ومن تبعك من المهتدين، وإنه قال له: يا غلام إنا قد أفدناك ومهدناك وعلمناك علماً".

وهذا كله إشعار بأن هناك طريقاً آخر ورواداً جدداً قد هيئوا لأمر ما، ووجهوا وجهة خاصة، وأن الله سيبلغ بهم ما لم يبلغ بسواهم من قبل في رجال القرن الأول، ومن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وسيعلم القارئ إن شاء الله تعالى أي مهمة هذه التي توجهت إليها هذه الفئة، وأي بلاغ عن الله تبارك وتعالى سيبلغون!!.

تاسعاً: لقد ختمت الحكاية بمثل ما بدئت، وهي أن قائلاً ممن كانوا حول الشيخ أسلم بن يزيد قال: يا إلهنا احجبه عنا، واحجبنا عنه. ففي الحال ذهبوا، ولا يدري أين ذهبوا؟ هكذا كما جاءه الهاتف وقال له: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت.

وهذا الأصل من الحكايات الغريبة سيكون بداية لحكايات تعتبر هذه الحكاية بالنسبة إليها أمراً مقبولاً وسائغاً، فما هذه الحكايات؟

وبهذه الأضواء يكون أمامنا تسع نقاط يجب أن نكون على ذكر منها في رحلتنا هذه في الفكر الصوفي، وخلاصة هذه النقاط هي أن هناك طريقاً للهداية هو طريق الهواتف، وأن هذه الهداية تحمل الإنسان على ترك الدنيا، وترك الآباء والأمهات والدخول إلى البراري والقفار، وأن المهتدي على هذا النحو يرى الأنبياء ويتكلم معهم، ويأكل من الغيب لا من الشهادة، وأن الخضر عليه السلام خادم لاسم الله الأعظم، هذا الإسم الذي يتعاظم على العارف أن ينطق به، وأن هذا الطريق الذي يلج فيه الصوفي يتصل به بالسماء فيتعلم العلوم، وأن هذا الطريق هو المنهج الوحيد للحصول على ولاية الله عز وجل، وأنه يجب الصبر مع أهل هذا الطريق، وعدم الإنكار عليهم، بل يجب على المهتدي أن يكون أرضاً لهم يطئون عليها. وأن هؤلاء القوم قد أرسلوا في مهمة خاصة، وأنهم يتلقون عن الله هكذا رأساً بلا وساطة، ويبلغون علماً خاصاً، وأنه بدعاء واحد يختفي الموجود، ويوجد المفقود!!..

الفصل الثاني

طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفاً

في الفصل السابق علمنا أن التصوف في بدء نشأته قد جعل غايته ما عبر عنه إبراهيم بن أدهم (بالأثرة لله)، وأنه في سبيل ذلك يجب أن تتحقق مفارقة الدنيا والانخلاع منها، وعلى هذا الأصل كان تشريع ترك الزواج والتكسب، لأنهما من أسباب القعود عن تحقيق هذه الغاية. وهذا الإله الذي سعى المتصوفة الأولون ومن بعدهم إلى إثاره على كل شيء. لا يستمدون معرفته والعلم بذاته وأفعاله عن طريق الكتاب والسنة، وإنما عن طريق فتح أبواب السماء -على حد تعبيرهم- بالمجاهدة والسلوك الصوفي، لينكشف لهم وجه الحق، ويعلموه على

حقيقتـه، وعنـدما نتتبـع هـذه العقيـدة منـذ ظهورهـا إلى أن اكتملت في صـورتها النهائية، وحددت تحديدها الأخير، فإننا سنعلم الصـورة الكاملـة للعقيـدة الصـوفية في الرب سبحانه وتعالى، والجنة والنار، والرسالات والغيب كله.

أولاً: عبادة الله لذاته:

زعم المتصوفة أن العبادة الحقـة هي مـا كـانت دون طلب العـوض من اللـه وأن يشهد فيها فعل الله لا فعل العبد، وأن من شاهد فعله في الطاعة فقد جحد، وقد استدلوا على ذلك بأدلة نذكرها فيما يلي:

1- ذكـر أبـو بكـر الكلابـاذي في كتابـه (التعـرف لمـذهب أهـل التصـوف) وهـو الموسوعة الفقهية التي نشرها الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، وشهدا في مقدمة الكتاب بأنه أقدم ما كتب عن هذا العلم ورجاله وأدقه وأصفاه، أقـول؛ قـال الكلابـاذي في بيـان المعـنى الحـق للعبـادة، وأنهـا لا تجـوز في حـق الصوفي أن تكون عن عوض، قال: "العوض ما للـه عليـك في العمـل في قولـه: {إن الله اشـترى من المؤمـنين أنفسـهم وأمـوالهم}" (التوبـة:111)، ولم يكمـل الآية ثم قال: "لتعبدوه بالرق لا بالطمع" (ص141) فرؤية الجنـة عنـدهم معصـية، وطلبها نقص في حق العابد".

ولذلك قال (ص155): "دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، فقـالوا: مـا حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتي سـبباً، غـير أني عرضـت على الجنـة (هكـذا) فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار علي، فعاتبني فله العتبى". ومعنى هذا أن مجرد ميل القلب إلى الجنة يعتبره المتصوفة ذنباً يعـاقبون عليـه. وفي سـبيل هذه العقيدة حول المتصوفة معاني الآيات والأحـاديث إلى مـا يريـدون إثباتـه من ذلك. وهذه بعض أدلتهم التي أخذوها من الآيات والأحاديث:

1- قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} بهـذا المقطـع من الآية فقط يسـتدل الكلابـاذي علي عقيـدة القـوم، ويقـول: ليعبـدوه بـالرق لا بالطمع. ويقطع الآية عن نهايتها التي ترد فيها قوله، وهي قوله تعـالى: {بـأن لهم الجنة} فشراء الله لأنفس المؤمنين وأموالهم إنما كان بعوض وهو الجنة، وعمـل المؤمنين كان سبباً للوصول إلى هذه الجنـة، وإن كـان غـير مكـافئ لهـا، ولكن لا يمنع هذا المؤمن أن يطمع في فضل الله ورحمته، ودخول الجنة، وأن يسعى إلى ذلك، بل هذا هو التعبد الصحيح.

2- قوله تعالى: {كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية} (الحاقـة:24) يقول الكلاباذي: "أي الخالية عن ذكر الله، لتعلموا أنـه بفضـله نلتم لا بأعمـالكم" (ص142) فسر الخالية هنا بمعنى الخالية عن ذكر الله، أي لأنكم لم تذكروا اللـه في بعض الأيام استحق هذا مني أن أدخلكم الجنة، لتعلموا أنما دخلتموها بفضلي لا بعلمكم. وهـذا تفسـير خـاطئ معكـوس لمعـنى الآيـة، فاللـه عـز وجـل يقـول للمؤمنين يوم القيامة: كلوا واشربوا هنيئاً بسبب ما أسلفتموه في الأيـام الخاليـة أي السابقة التي خلت. والذي أسلفوه هو العمل الصالح.

3- استدل الكلاباذي أيضاً على هذه العقيدة بقول الرسول صلى الله عليه وسـلم في الحديث القدسي: [الصوم لي، وأنا أجزي به] (هو جزء من حديث رواه بنحوه البخاري ومسلم (3/157 و158 نووي) والترمـذي (764) عن أبي هريـرة) قـال: "قال أحد الكبراء: أي أنا الجزاء به" (ص143).

وأحد الكبراء هذا هو الحلاج. وهذا تحريف لمعنى الحديث، ليوافق هذا المعتقد الباطل.

وقد يظن المسلم في عصرنا الحاضر أن هذه العقيدة في الجنة عقيدة سامية، وهي أن يعبد الإنسان الله، لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار، ولكنها عقيدة غير صحيحة إذ هي مخالفة لعقيدة الكتاب والسنة.

فقد وصف الله حال الأنبياء في عبادتهم وتقربهم ودعائهم بأنهم كانوا {ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين} (الأنبياء:90)، والرغب هو الطمع في جنة الله وفضله، والرهب هو الخوف من عقابه، والأنبياء هم أكمل الناس عقيدة وإيماناً وحالاً.

وكذلك وصف تبارك وتعالى أكمل المؤمنين إيماناً بقوله تعالى: {إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكّروا بها خروا سجداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون* تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون* فلا تعلم نفسٌ مّا أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} (السجدة:15-17).

فهؤلاء الذين ادخر الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر لا شك أنهم أكمل الناس إيماناً وحالاً، ومع ذلك فهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً: خوفاً من عذابه، وطمعاً في جنته. وآيات القرآن في هذا المعنى لا تحصى كثرة.

وأما السنة فلا حصر للأحاديث في ذلك، ومن أبلغها في الدّلالة على هذا الأمر قول أحد الأعراب للنبي صلى الله عليه وسلم: والله إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، وإنما أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار؛ فقال صلى الله عليه وسلم: [حولها ندندن] (رواه أبو داود (792 و793) وابن ماجة (910) وأحمد (3/474 و5/74) وابن خزيمة، وصحح إسناده الألباني في (صفة الصلاة-202))، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدندن بدعائه حول الجنة، فهل يتصور عقلاً وجود رجل أو امرأة أكمل منه صلى الله عليه وسلم، فيدعو الله ويعبده لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من نار؟.

وهذه الحالة التي سعى المتصوفة إلى تحقيقها، أعني عبادة الله مجردة عن الطمع والخوف جرت عليهم البلايا: فقد سعوا إلى غاية أخرى بالعبادة وهي القول بالفناء في الرب، وجرهم هذا إلى الجذب، ثم جرهم هذا إلى الحلول، ثم جرهم هذا في النهاية إلى وحدة الوجود.

وفي هذا الفصل من الرسالة سنسوق إليك الأدلة على هذا التسلسل العقائدي.

وقد مر بك أن رابعة العدوية لما اشتكت، وعادها بعض المتصوفة زعمت أن ذلك بسبب غيرة الله عليها (هكذا) لأنها مالت بقلبها إلى الجنة. وإني لأتساءل: من أين لها أن تعلم حب الله لها وقبوله لعملها، فضلاً عن غيرته سبحانه وتعالى عليها؟ وقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون* والذين هم بآيات ربهم يؤمنون* والذين هم بربهم لا يشركون* والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون* أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} (المؤمنون:57-61).

وقد سألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: {يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة} فقالت يا رسول الله يسرقون ويزنون ويخافون؟ قال: [لا يابنة الصديق، ولكن يصومون ويصلون ويخافون أن لا

يتقبـل منهم] (رواه أحمـد في (المسـند-6/159 و205) والترمـذي في (سـننه-201/2) وابن ماجة (4198) وإسناده ضعيف: منقطع، عبـدالرحمن بن سـعيد بن وهب لم يدرك عائشة، كما قال الحافظ العسقلاني في (التهذيب) ولكن لـه عنـد ابن جرير (18/26) طرقاً وشاهداً موصـولاً يتقـوى بـه، وقـد حسـنه الألبـاني في (الصحيحة 162)).

فإذا كان حال المؤمن هو الخوف دائماً من الله تبارك وتعالى حـتى مـع الطاعـة، فمن أين لرابعة العدوية أن تعرف أن اللـه قـد غـار عليهـا؟ (العيـاذ باللـه..) لأنهـا مالت بقلبها إلى الجنة؟ أليس هذا القول من رابعة (إن صح نسبته إليها، وقد ذكر في أقدس كتب القوم وأنقاها بـاعترافهم) هـو قـول على اللـه بلا علم، وهـو من اتباع خطوات الشيطان التي نهانا الله عنها بقوله: {يا أيهـا النـاس كلـوا ممـا في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشـيطان إن لكم عـدو مـبين* إنمـا يـأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} (البقرة:168 و169).

الفصل الثالث

التنفير من الطريق الشرعي للهداية

لما كان الدخول في الطريق الصوفي لا يشترط له التوجه إلى الكتاب والسنة، بل إن التوفيق له يأتي أحياناً عن طريق الهاتف، وأحياناً بطرق أخرى سنعرفها فيما بعد إن شاء الله تعالى، فإن القوم منذ نشأتهم رأوا أن علمهم الذي يحصلون عليه -في زعمهم- أفضل من علم الكتاب والسنة، بل رأوا أن علم الكتاب والسنة مشغلة عن طريقهم ومسلكهم، وهذه بعض عباراتهم في ذلك:

I- قال أبو يزيد البسطامي (مات سنة 261هـ) ناعياً على علماء الشريعة مفاخراً لهم:

"أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات" (الفتوحات المكية ج1-ص365).

ب- وهذا الجنيد يقول: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال" (طبقات السلمي 158).

ج- ويقول أيضاً: "أحب للمبتدئ ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث، وإلا تغيرت حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج، وأحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه" (قوت القلوب:3/135).

د- وقال أبو سليمان الداراني: "إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا" (الفتوحات المكية 1/37).

وهذه أقوال قليلة مما نسب إلى القوم في وجوب ترك علم الشريعة، والانصراف إلى طريقهم الخاص في التلقي والكشف.

ولا يخفى على أي منصف يتقي الله تبارك وتعالى، ويقول كلمة الحق أن هذه الأقوال كافية في هدم الشريعة الإسلامية، بل في هدم العمران كله، لأن الحضارة الإنسانية حتى المادية منها لا تقوم إلا على هذه الثلاث: العلم، وطلب الكسب والمعاش، والزواج. وحضارة الإسلام خاصة تقوم على هذه الثلاث، وتأمر بطلب علم الآخرة وهو علم الكتاب والسنة، وكذلك علم الدنيا وهو كل علم نافع لحياة الإنسان ورقيه في هذه الأرض.

ولم يكتف أهل هذا المنهج من المتصوفة بالتنفير من علم الشريعة والحديث بل جعلوا كشفهم، وما يزعمون نقله من العلم عن الله تبارك وتعالى حاكماً على إسناد الحديث فيصححون ما شاؤوا من الأحاديث، وإن كانت ضعيفة عند علماء الحديث والسنة، ويضعفون ما شاؤوا منها، وإن كانت ثابتة صحيحة حسب الموازين العلمية الدقيقة التي تعارف عليها علماء الحديث ومصطلحه، والتي هي بحق مفخرة الإسلام، فليس عند أمة من أمم الأرض قديماً وحديثاً تثبت في النقل على النحو الذي درج عليه علماء هذه الأمة في التعرف على الحديث الصحيح من الضعيف، وبذلك -ولله الحمد- سلم دين الأمة من دخول أقوال الزنادقة والملاحدة فيه.

أقول عمد رؤساء المتصوفة إلى هدم الإسناد في الحديث، وهو مفخرة الإسلام بحق، وذلك عن طريق الحكم على الإسناد بعلمهم الخاص. يقول ابن عربي في رسائله:

"وربمـا قـالوا (أي علمـاء الشـريعة) إذا عـاينوهم (أي عـاينوا علمـاء الصـوفية) يتكلمون بمواجيدهم مع أصـحابهم: دين مكتـوم، دين مشـوم، ومـا عرفـوا جهـات الدين. وهؤلاء ما تكتمـوا بالـدين فقـط، وإنمـا تكتمـوا بنتائجـه، ومـا وهبهم الحـق تعالى في طاعته حين أطاعوه، وبما صح عنـدهم من أحـاديث الأحكـام مـا اتفـق على ضـعفه، وتجـريح نقلتـه، وهم أخـذوه عن الكشـف (الكشـف: هـو انكشـاف حجاب القلب ورؤيته أشياء من الغيب زعم الصوفية أنـه يحصـل لهم، ومـراد ابن عربي هنا بالكشف الاتصال بالرسول، ومعرفة الحـديث منـه رأسـاً (انظـر البـاب الخاص بالكشف الصوفي))، عن قائله صحيحاً، فتعبدوا بـه أنفسـهم على غـير مـا تقرر عند علماء الرسوم، فينسـبونهم إلى الخـروج عن الـدين، ومـا أنصـفوا فـإن للحق وجوهاً يوصل إليه منها هذا أحدها، ورب حديث قد صـححوه واتفقـوا عليـه، وليس بصحيح عندهم من طريق الكشف، ويتركون العمـل بـه مثـل ذلـك سـواء" (رسائل ابن عربي:ص4).

ومعنى هذا كله أن للمتصوفة حكمهم الخـاص على إسـناد الحـديث، فعن طريـق الكشف يتصلون رأساً بـالنبي ويصـححون الحـديث أو يضـعفونه!! وبهـذا الهجـوم على قواعد علم الحديث تتهدم السنة، وتبقى ألعوبة في يد هؤلاء الذين يحكمـون عليها بما شاؤوا وليس من ضـابط يرجـع إليـه، ولا فيصـل يحتكم إليـه مـا دام أن الكشف هذا علم غيبي، وقد يكون كشف هذا غير كشف ذاك.

أقول: لم يكتف المتصوفة بوضع الأصول على ترك العلم الشرعي والتنفـير منـه، بل أصلوا الأصول أيضاً لهدم علوم الشريعة وزوالها، وهذا أول معـول من معـاول الهدم، هدم الإسناد لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف.

ولم يكتـف المتصـوفة بـالنهي عن العلم، بـل جعلـوا العلم عـورة يجب أن تسـتر وتغطى، حتى إن شيخاً يرى مريداً له، وقد سقطت منه محبرة، فيقول له: اخــف سوأتك!! (عن تلبيس إبليس لابن الجوزي ص370)

وبعد أن وضع المتصوفة هذه القواعـد لهـدم العلم الشـرعي والتنفـير منـه دعـوا الناس إلى العلم الباطني الذي أطلقـوا عليـه اسـم الحقيقـة، وقـالوا: إن طريـق الوصول إليه هو الكشف والفتح الرباني والفيض الرحمـاني. لنعلم أنهم لا يعنـون بالعلم الباطن إصلاح حال القلوب كما يزعم بعضهم، بل إنهم يعنون علمـاً خاصـاً يكشفون به حقائق يزعمون رؤيتهـا والتحقـق بهـا. ولقـد بـالغوا في تفضـيل هـذا العلم، وتشـديد التنكـير على من نفـاه أو خالفـه. وقـد كـانوا يخفـون هـذا العلم والكشف في أول أمرهم، ويجعلونه من الأسرار والخصوصـيات، ولكنهم سـرعان ما أعلنوا عنه وكشفوه بعد أن تحولت دفة الناس إليهم.

الفصل الرابع

القول بالحلول

لما كان طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفاً عند المتصوفة بل كـان هـذا هـو طلب العامة والدهماء في زعمهم فإن المتصـوفة جعلـوا لهم أهـدافاً أخـرى غـير ذلك وهو أن يكون كل منهم إلهـاً وربـاً يعلم الغيب كلـه كمـا يعلمـه اللـه سـبحانه وتعالى ويتصرف في الكون كله كما يتصرف الله فيحيي، ويميت ويخفض ويرفـع، ويعز ويذل..

لقد أصبح الهدف الصوفي هو الوصول إلى مقام النبوة أولاً ثم الترقي حتى يصل الفرد منهم في زعمهم إلى مقام الألوهية والربوبية.

فهـذا مثلاً أبـو يزيـد البسـطامي وهـو من أئمـة القـــوم ومقـدميهم، تـوفي سـنة 261هـ، فهو من أعلام القرن الثالث في التصوف، وقد مـر بـك كلامـه في شـأن الرجل الذي استفتاه في أنه لا يجد في نفسه من علوم القوم شيئاً، فأفتـاه بتلـك الفتوى العجيبة. يذكر عن نفسه ما يأتي:

"رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد! إن خلقي يحبون أن يـروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتـك، وارفعـني إلى أحـديتك، حـتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا" (اللمع ص461).

وهـذا الكلام لا يحتـاج إلى تفسـير وتأويـل، والاعتـذار عنـه مشـاركة لصـاحبه في الباطل الذي يسعى إليـه، ولنـترك سـيد الطائفـة في وقتـه (الجنيـد) يفسـر كلام صاحبه أبي يزيد البسطامي يقول الجنيد في تفسير الكلام السابق:

"هذا كلام من لم يلبسه حقـائق وحـدة التفريـد في كمـال حـق التوحيـد، فيكـون مستغنياً بما ألبسه عن كون ما سأله.. وسؤاله لـذلك يـدل على أنـه مقـارب لمـا هنـاك، وليس المقـارب للمكـان بكـائن فيـه على الإمكـان والاسـتمكان.. وقولـه: ألبسني وزيني، وارفعني يدل على حقيقة ما وجده مما هذا مقـداره ومكانـه، ولم ينل الحظوة إلا بقدر ما استبانه" أ.هـ (اللمع ص461).

وبالطبع لن يستطيع أحد أن يفهم شرح الجنيد لكلام صاحبه أبي يزيـد إلا من فهم عقيدة القوم، وعرف محتواها على الحقيقة. وإليك شرح كلامه حتى كأنك تحسـه وتراه إن شاء الله.

أقـول: حكم الجنيـد على صـاحبه أبي يزيـد بأنـه لم يصـل بعـد إلى كمـال حقيقـة التفريد (ومعنى التفريد أن يعتقد الصوفي أنه ما تم في الحياة إلا فرد واحـد، هـو الله، تعددت وجوداته بحسب ما يظهر للناس، ولكن الحق واحد!! ولذلك قال عن أبي يزيد: "هذا كلام من لم يُلبسْهُ (أي الله تعالى) حقائق وحـدة التفريـد"، أي لم ير غير الله غـيراً كمـا مـر من كلام الحلاج.. ولـذلك قـال عنـه أيضـاً بأنـه لـو رأى التفريد على الحقيقة لكـان مسـتغنياً بمـا ألبسـه عن كـون مـا سـأله، فقـد سـأل البسطامي ربه أن يلبسه أنانيته، ويرفعه إلى أحديته.. ولو كان متحققاً من القول بوحدة الوجود لم يقل ذلك، ولم يطلبه، لأنه سيعلم يقيناً أنه هو الله.. ولـذلك رآه الجنيد بسؤاله هذا مقارباً للحقيقة الصوفية النهائية، فقـال: "وسـؤاله لـذلك يـدل على أنه مقارب لما هناك.." ثم شرح هذا القول بقوله:

"وقوله ألبسني وزيـني وارفعـني: يـدل على حقيقـة مـا وجـده ممـا هـذا مقـداره ومكانه، ولم ينل الحظوة إلا بقدر ما اسـتبانه" أي فهـذا مكـان أبي يزيـد في فهم الحقيقة الصوفية، ولم يصل بعد إلى فهمنا على الحقيقة.

فانظر أيها الأخ المنصف أين كان الجنيد سيد الطائفة الصوفية من قضية التوحيـد في الإسلام..

ولم يكن حكم الجنيد على أبي يزيد البسطامي في قوله السابق منفـرداً بـه، بـل حكم بهذا الحكم صاحبها الشبلي الذي كان أوحد القوم حالاً كما قالوا.

وروى صاحب اللمع الحكاية الآتية (ص741): "حكي عن الشبلي رحمه الله.. أنـه سئل عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله. وعرض عليه ما حكي عنه ممـا ذكرنـاه

وغير ذلك، فقال الشبلي رحمه الله: لو كان أبو يزيد رحمه الله ها هنا لأسلم على يد بعض صبياننا..، وقال: لو أن أحداً يفهم ما أقول لشددت الزنانير".

فانظر كيف حكم الشبلي على أبي يزيد بأنه لا يصلح تلميذاً له، بل لو كان موجوداً معه الآن في وقته لأسلم على يد بعض صبيان الشبلي.. وأنا أجزم الآن أنه يقصد بهذا الإسلام أن يعلمه أنه لا موجود إلا الله.. ولذلك قال بعد ذلك: "لو أن أحداً يفهم ما أقول لشدد الزنانير" ومعنى شد الزنار أن يلبس لباس أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس، لأنه كان يعتقد -بما لبس على الناس- أن أحداً من معاصريه لا يفهم ما يشير إليه بهذه الأقوال.. وهذا حق، لأن القوم ليسوا على الناس بما ادعوه من الصلاح والتقوى ومحبة الله ورسوله. وقد مر بك أن هذا الشبلي كان سميناً بديناً، ومع ذلك كان يزعم أنه يحمي المرود ويكتحل به حتى لا ينام.

ومما يدلك على ما جزمت به سالفاً من تفسير قول الشبلي الآنف ما فسر به أيضاً الجنيد حال أبي يزيد البسطامي قائلاً:

"إن أبا يزيد رحمه الله.. مع عظم حاله، وعلو إشارته لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدل على كمال النهاية" (ص479).

فانظر وتيقن الآن معتقد القوم الذين يشهدون على البسطامي بأنه لم يجاوز حال البداية، وهو الذي قال الأقوال السالفة.. ولا غرو في ذلك ما دام الشبلي يقول عن نفسه لأبي عبدالله بن جابان بعد أن زاره، وأراد أن يخرج من عنده هو وبعض زملائه: "مروا أنا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلاءتي" (ص 478).

فالذي وصل إلى هذه النهاية لا شك أنه يحكم على كلام البسطامي أن ما جاوز البداية..

وقد يظن ظان أن الجنيد كان دون الشبلي في هذه الأقوال، وهذا من الجهل والغفلة، وعدم تتبع القضية الصوفية، والغوص على مغاليقها وأسرارها، والأمر على غير ذلك، فالجنيد كان أسبق أولئك القوم إلى العقيدة الصوفية، وأعلم الناس بها، ويدلك على هذا أن الشبلي يسأله يوماً، فيقول له: يا أبا القاسم ما تقول فيمن كان الله حسبه قولاً وحقيقة؟ فقال الجنيد رحمه الله.. يا أبا بكر (وهي كنية الشبلي) بينك وبين أكابر الناس في سؤالك هذا عشرة آلاف مقام، أوله محو ما بدأت به (اللمع ص487).

فانظر كيف سأل الجنيد عن حقيقة من حقائق الإسلام، وهي أن يكون الله حسب المرء في اعتقاده وقوله وكل شؤونه، أي أن يعتقد المسلم أن الله كافيه في كل ما يهمه ويشغله، وهذا من كمال التوحيد كما قال تعالى: {أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه} (الزمر:36)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قيل له: إن قريشاً عزمت أن ترجع لتستأصل شأفة المسلمين بعد هزيمة أحد قال صلى الله عليه وسلم: [حسبنا الله ونعم الوكيل] أي الله كافينا ومنجينا سبحانه وتعالى. انظر كيف حكم الجنيد على هذه الحقيقة الشرعية بأن سؤال الشبلي عنها يدل على أن بينه وبين أكابر الناس أي (كبراء الصوفية) عشرة آلاف مقام، أول هذه المقامات محو هذه الحقيقة الشرعية التي بدأ الشبلي بالسؤال عنها..

الفصل الخامس

القول بوحدة الوجود

لما بدأ القول بالحلول، وجعل المتصوفة غايتهم من التصوف أن يتشبهوا بصفات الله في زعمهم فيكون أحدهم إلهاً يعلم كل شيء، ويتصرف في كل شيء فإن هذا الحال استمر بهم حتى وصلوا في النهاية إلى القول بوحدة الوجود، وأن كل شيء إنما هو الله وأن الله هو الذي في الكون وحده وليس هناك شيء آخر معه.

ومصطلح وحدة الوجود يعني في العقيدة الصوفية أنه ليس هناك موجود إلا الله فليس غيره في الكون، وما هذه الظواهر التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة، هي الحقيقة الإلهية (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، هذه الحقيقة التي تنوعت وجوداتها ومظاهرها في هذا الكون المشاهد، وليس هذا الكون -في هذه العقيدة الباطلة- إلا الله في زعمهم، تعالى الله عن ذلك.

وقد رأينا كيف عبر الحلاج عن هذه العقيدة بكل صراحة ووضوح فيما نقلناه عنه آنفاً، وكيف عبر عنها الشبلي بشيء من التعمية واللف والدوران، وكيف جاءت في الكلام المنسوب إلى الجنيد في شيء من الحذر والحيطة.

ولقد استمرت هذه العقيدة معلومة عند أناس مخصوصين فقط بلغوا النهاية في الطريق الصوفي، ولكنهم لم يعبروا عنها إلا بتعبيرات ملفوفة غامضة، لا يفهمها إلا من سار سيرتهم، وذاق ذوقهم، وكشف غوامض كلامهم.

ولكن القرن السادس الهجري شهد في أواخره، وبداية القرن الذي يليه رجلاً عجيباً استطاع أن يصوغ هذه العقيدة صياغة كاملة، ويضرب لها آلاف الأمثلة، ويبني عليها فروعها المختلفة في الاعتقاد والتصور، ويؤلف فيها عشرات الكتب، ذلك الرجل هو محيي الدين بن عربي المتوفي سنة 638هـ، نشأ هذا الرجل في الأندلس، واستقر به المقام في الشام، ورمي بالكفر والزندقة والإلحاد والكذب، ولكن عقيدته ومذهبه وجدت المشيعين والمروجين الذين استطاعوا أن يرفعوه -كما رفع نفسه- إلى مرتبة الولاية، بل إلى ختم الولاية ومرتبة المشيخة الكبرى وإحياء الدين.

وبالرغم من أن ابن عربي هذا قد زعم أنه نقل علمه وكتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، وكتب عن اللوح المحفوظ بلا وساطة، وصاغ عقيدة وحدة الوجود بكل جرأة وبلا مواربة، بل بقليل من التدليس والمراوغة، واستطاع أن يحرف آيات القرآن فيزعم أن قوم هود الكافرين كانوا على الصراط المستقيم، وأن فرعون كان مؤمناً كامل الإيمان، وأن قوم نوح كانوا مؤمنين، فجازاهم الله بأن أغرقهم في بحار الوحدة، وأدخلهم نار الحب الإلهي ليتنعموا فيها، وأن هارون أخطأ لأنه نهى بني إسرائيل عن عبادة العجل، وما كان العجل إلا المعبود الحق، أو صورة من صور المعبود الحق، وأن قوم نوح أصابوا في عدم تركهم وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً لأنها مظاهر للإله الواحد، وأن النار عذوبة لا عذاب، وأنه ما من إنسان إلا مرحوم مرضي عنه، وأن الله لا يعلم شيئاً قبل وجوده، لأن وجود الشيء هو وجود العلم، بل وجود كل شيء هو ترجمة لوجود الله (تعالى الله عن ذلك) أقول: بالرغم من أن ابن عربي قال هذا الكلام كله، بل هذا جزء يسير جداً مما قاله، فإنه أدعى بأن كل ذلك قد نقله بلا زيادة ولا نقصان عن الرسول الذي أمره بتبليغ ذلك للناس، وبالرغم أيضاً من كل ذلك فقد وجد هذا الرجل من المروجين والأتباع ما لا يقع تحت الحصر منذ ظهوره

إلى زماننا هذا، ومن أمة الإسلام الذين يشهدون في كل يوم مرات كثيرة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذا من أعجب العجب.

وهاك الآن نقولاً صوفية من كتبه تدلك على هذه العقيدة.

1- قال في مطلع كتابه "فصوص الحكم" وهو الكتاب الذي جعله خاتمة لأعماله جامعاً لعقيدته: "أما بعد فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أريتها في العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا "كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا" ثم يقول:

فحققت الأمنية، وأخلصت النية، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي الرسول صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان" (الفصوص، ص 47، طبع بيروت. تحقيق: أبو العلاء عفيفي).

ويقول في مكان آخر بعد أن ذكر مواضيع الكتاب: "فاقتصرت على ما ذكرته من هذه الحكم في هذا الكتاب على حد ما ثبت في أم الكتاب، فامتثلت ما رسم لي، ووقفت عند ما حد لي، ولو رمت زيادة على ذلك ما استطعت فإن الحضرة تمنع من ذلك" (ص58).

ويقول أيضاً في "فص حكمة علوية في كلمة موسوية": "وأنا إن شاء الله أسرد منها في هذا الباب على قدر ما يقع به الأمر الإلهي في خاطري فكان هذا أول ما شوفهت به من هذا الباب" (ص58).

وهذه النقول من مقدمة الكتاب ومن ثناياه تعلمك إصرار الرجل أنه ينقل عن الله مباشرة بل مشافهة، وعن اللوح المحفوظ رأساً، وعن الرسول الذي أمره في تلك الرؤيا المزعومة أن يخرج على الناس بهذا الكتاب، فماذا في هذا الكتاب من العلم بالله ورسالاته والهدى والنور؟ لننظر.

2- يزعم ابن عربي أن قوم نوح أجابوا رسولهم إجابة حقيقية، وأن نوحاً مكر بهم فمكروا به، وأن تمسكهم بآلهتهم إنما هو تمسك بحق أراد نوح أن يزيلهم عنه، وهاك نص عباراته في ذلك:

"علم العلماء بالله ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والأمر قرآن لا فرقان، ومن أقيم في القرآن لا يصغي إلى الفرقان وإن كان فيه..، دعاهم ليغفر لهم، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه صلى الله عليه وسلم. لذلك (جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم) وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها، فأجابوا دعوته بالفعل، لا بلبيك.

قال نوح في حكمته لقومه: {يرسل السماء عليكم مدراراً} وهي المعارف العقلية في المعاني والنظر الاعتباري، {ويمددكم بأموال} أي بما يميل بكم إليه، فإذا مال بكم إليه رأيتم صورتكم فيه، فمن تخيل منكم أنه رآه فما عرفه، ومن عرف منكم أنه رأى نفسه فهو العارف" (ص71).

فانظر كيف جعل المطر والخصب الذي هو نتيجة للصلاح والتقوى والإيمان والاستغفار والمعارف العقلية.. وكيف جعل الأموال أي ما يميل بهم إليه فيرون

صورتهم فيه، وهذه هي وحدة الوجود، ولذلك يقـول بعـدها: "فمن تخيـل أنـه رآه فما عرف وأما من رأى نفسه فهو العارف".

ثم يقول: {ومكروا مكراً كباراً} لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو، أدعو إلى الله فهذا عين المكر، فأجابوه مكراً كما دعـاهم (ص72)، فـانظر كيـف جعـل الـدعوة إلى الله مكراً بالمدعوين، بل عين المكر ثم بين نوع المكر الذي قابل قـوم نـوح نوحاً، فيقول: "فقالوا في مكرهم: لا تـذرن آلهتكم، ولا تـذرن وداً ولا سـواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً، فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحـق على قـدر مـا تركـوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله..، فمـا عبد غير الله في كل معبود" (ص72).

وبهذا يجعل ابن عربي تلك الآلهة الباطلة التي عبدها قوم نوح آلهة حقة، لأنها في زعمه وجه من وجوه الحق.

ثم يقول مكملاً تبـديل آيـات اللـه: {ولا تـزد الظـالمين} لأنفسـهم (المصـطفين) الذين أورثوا الكتاب أول الثلاثة، فقدمـه على المقتصـد والسـابق {إلا ضـلالاً} إلا حيرة" (ص73).

وهنا يجعل ابن عربي قول الله في شأن قوم نوح: {ولا تزد الظالمين إلا ضــلالاً} وهو الدعاء الذي دعا بـه نـوح على قومـه، يجعـل ابن عـربي هـذا الظلم كـالظلم الذي وصف الله به طائفة من الذين أورثهم الكتاب حيث قال: {ثم أورثنا الكتاب الــذين اصـطفينا من عبادنــا فمنهم ظـالم لنفســه ومنهم مقتصــد ومنهم سـابق بالخيرات} فيجعل هذا الظلم كذاك الظلم، وهذا غاية التلبس والثعلبية.

ثم يقـول ابن عـربي: (ممـا خطيئـاتهم) فهي الـتي خطت بهم، فغرقـوا في بحـار العلم باللـه. {فلم يجـدوا لهم من دون اللـه أنصـاراً} فكـان اللـه عين أنصـارهم، فهلكوا فيه إلى الأبد" (ص33)، ثم يحرف قول الله تعالى: {إنك إن تذرهم يضلوا عبادك} قائلاً: "أي يحيروهم، فيخرجوهم من العبودية إلى ما هم فيـه من أسـرار الربوبية، فينظرون أنفسـهم أربابـاً بعـدما كـانوا عنـد أنفسـهم عبيـداً، فهم العبيـد الأرباب" (ص74).

فيجعل ضلال قـوم نـوح إنمـا هـو حـيرة، لأنهم عرفـوا أسـرار الربوبيـة، وأن كـل موجود هو الله، فأصبحوا بذلك أرباباً عند أنفسهم..

ثم يحـرف كلمـات الآيـة الباقيـة فيجعـل (رب اغفـر لي) وهـو بقيـة كلام نـوح أي اسـترني، (ولوالـدي) يعـني العقـل والطبيعـة و (لمن دخـل بيـتي) يعـني قلـبي، (وللمؤمنين) أي العقول. (والمؤمنات) أي النفـوس (ولا تـزد الظـالمين) أي أهـل الغيب، (إلا تباراً) أي هلاكاً، فلا يعرفون نفوسهم لشهودهم وجـه الحـق دونهم، ثم يقول بعد ذلك: "ومن أراد أن يعرف أسرار نوح فعليه بالرقي في فلك نوح، وهــو في (التنزلات الموصلية) لنا والله يقول الحق" أ.هـ (ص74).

3- لم يكتف ابن عربي بتصحيح موقف قوم نوح الضالين المكذبين، بل عمــد إلى جميــع كفــار الأرض فجعلهم مؤمــنين موحــدين عــارفين واصــلين، وعمــل إلى المسلمين فجعلهم مؤمنين بجزء من الحق فقط كافرين بأجزاء أخرى، ولم ينس ابن عربي فرعون اللعين الذي لم تعرف الأرض قبله أكفر منـه ولا أظلم، فجعلـه من المؤمنين الموحدين الفائزين بالجنة حيث يقول:

"ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسـيف، وإن جار في العرف الناموسي، لذلك قال: (أنا ربكم الأعلى) أي وإن كان الكل أربابـاً

بنسبة ما فأنا ربكم الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه في مقاله لم ينكروه، بل أقروا له بذلك، فقالوا: (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا). (فاقض ما أنت قاض) فالدولة لك، فصح قوله: أنا ربكم الأعلى" (ص210،211).

وهذا الكلام واضح ووازنه بكلام الحلاج الآنف في شأن فرعون، لتعلم وحدة العقيدة التي دعا إليها هؤلاء الأقوام. بقي أن تعلم إشاراته الخبيثة في كلامه، نحو: أن فرعون كان الخليفة بالسيف، ويعني بالخليفة قول الله لداود: (إنا جعلناك خليفة في الأرض) فيقيس الخلافة الشرعية النبوية على الملك المتسلط الفاجر، ثم شريعة موسى عُرفاً، أي ما يعرفه موسى، ولذلك اتهم بعض الصوفية الآخرين موسى عليه السلام بالجهل، وفرعون بالعلم والمعرفة، فقال: كان فرعون أعلم بالله من موسى، لأنه عرف حقيقة الحق، وأما موسى فما عرف إلا وجهاً واحداً، ولم يعرف أن الكل أرباب وأنهم مخلوقون في نفس الوقت، فالإنسان عندهم هو الحق والخلق، كما سيأتي بالنص إن شاء الله من كلام ابن عربي، ولذلك قال ابن عربي معللاً كلمة فرعون: (أنا ربكم الأعلى) أن الكل أرباب بنسبة ما؛ وفرعون أعلى من هؤلاء الأرباب، لأنه الملك المطاع في ذلك الوقت.

وعلى هذا فقد حكم له بالإيمان والجنة زاعماً أنه آمن عندما رأى انفلاق البحر لبني إسرائيل، فنجاه الله من العذاب الآخروي، وعمته النجاة حساً ومعنى، وأنكر على من يقول: إنه من المعذبين قائلاً: "ليس لديهم نص في هذا المعنى"، مع العلم أن الله يقول عنه: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين* إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد* يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود* وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود} (هود:96-99).

وما غاب هذا النص عن ابن عربي، ولكنه التلبيس والثعلبية والمكر، ومخالفة سبيل المؤمنين من أولهم إلى آخرهم.

وعلى هذه العقيدة الباطلة أيضاً صحح ابن عربي موقف السامري، وصناعته للعجل الذي فتن به بنو إسرائيل، فعبدوه من دون الله، وخطّأ ابن عربي هارون عليه الصلاة والسلام، لأنه ما عرف الحق، وأنكر على بني إسرائيل، وزعم ابن عربي أن موسى عرف الحق وأنكر على السامري أن يحصر الإله في شيء واحد فقط، لأن عين كل شيء هي عين الإله، وهي عين الحق (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

يقول ابن عربي في ذلك: "ثم قال هارون لموسى عليه السلام: (إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل) فتجعلني سبباً في تفريقهم، فإن عبادة العجل فرقت بينهم، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى فيسألونه عن ذلك، فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه أن الله قضى ألا يعبد إلا إياه.. وما حكم الله بشيء إلا وقع.. فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء" أ.هـ (الفصوص ص192).

فانظر كيف زعم الخبيث أن موسى علم أن أصحاب العجل ما عبدوا إلا الله، لأن الله قال: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} (الإسراء:23)، فجعل هذا القضاء قضاء كونياً قدرياً، وأن الله ما حكم بشيء إلا وقع، ومعنى هذا عنده أن كل معبود في الأرض إنما هو الله، وما عبد الإنسان شيئاً حجراً أو غيره إلا عبد الله، مستدلاً بالآية السالفة بمعنى حكم وأمر، وهذا الحكم والأمر حكم شرعي، فمن هداه الله ووفقه إليه امتثله. ومن اتبع سبيل الغواية والشيطان انحرف ومال عنه، كبقية الأوامر الشرعية، نحو وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ونحو قوله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} (الأحزاب:36). وقد خالف قضاء الله وأمره كثير من الكفار والملاحدة والجاحدين، وخالف بعض المؤمنين بعض ما قضى الله به ورسوله، وكثيراً مما أمر به.

وها قد رأيت أن ابن عربي ختم عبارته بقوله: "فالعارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء" وهذا منتهى العقيدة الصوفية، والفارق هو الاصطلاح الصوفي لمن تحقق من هذه العقيدة الخبيثة، ووصل النهاية في هذا العلم الخبيث (والحق) هو الله في زعمهم، تعالى الله عن ذلك وسبحانه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم يتمم ابن عربي شرح عقيدته الباطلة، فيحرف معنى قول الله تعالى: {فما خطبك يا سامري} قائلاً: "يعني فما صنعت من عدو لك إلى صورة العجل على الاختصاص" أ.هـ، أي لماذا خصصت العجل فقط بكونه إلهاً، والحال في هذه العقيدة أن كل شيء هو الله، ولذلك حرق موسى العجل حتى لا يحصر الإله في شيء واحد (تعالى الله عن ذلك) ثم يستطرد الخبيث قائلاً: "وقال له: (وانظر إلى إلهك) فسماه إلهاً بطريق التنبيه للتعليم أنه بعض المجالي الإلهية" أ.هـ.

فانظر كيف زعم أن قول موسى للسامري: (وانظر إلى إلهك) أن هذا اعتراف موسى بألوهية العجل، لأنه بعض الأشياء التي يتجلى فيها الرب (سبحانك هذا بهتان عظيم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).

ثم يفلسف ابن عربي عدم تسلط هارون على نسف العجل وإحراقه، وكون موسى هو الذي سلط على ذلك، زاعماً أن هذا كان ليعبد الله في كل صورة، والعجل هو إحدى هذه الصور التي يجب عنده -لعنه الله- أن يعبد الله فيها، ويحرف في ذلك قول الله تعالى: {رفيع الدرجات} فلله درجات يعبد فيها، وكل صنم وإله عبد في الأرض، فهو إحدى درجات الله في زعمه (تعالى الله عن ذلك) ثم يجعل عبادة الهوى أعظم هذه الدرجات وأسماها. وهاك نص عبارته في ذلك: "فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه حكمة من الله تعالى ظاهرة في الوجود، ليعبد في كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك، فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية" ثم يقول "وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد، والظهور بالدرجة في قلبه، وكذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات، ولم يقل.. رفيع الدرجة، فكثر الدرجات في عين واحدة، فإنه قضى أن لا يعبد إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة، أعطت كل درجة مجلى إلهياً عبد فيها، وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه (الهوى) كما قال: {أفرءيت من اتخذ إلهه هواه} (الجاثية:23) وهو أعظم معبود، فإنه لا يعبد شيء إلا به.. ولا يعبد هو إلا بذاته، وفيه أقول:

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ... ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى"

(الفصوص ص194)

ثم يقول بعد ذلك: "والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجر، أو حيوان أو إنسان، أو كوكب أو ملك"   (الفصوص ص195).

ثم جعل ابن عربي بعد ذلك كفار قريش الذين تمسكوا بآلهتهم الباطلة قائلين {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} (الزمر:3) غير منكرين لله، بل متعجبين لأنهم وقفوا مع كثرة الصور، ونسبوا الألوهية إليها، ثم يزعم أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد جاء داعياً لهم إلى إله يعرف، ولا يشهد.. ثم يصف ابن عربي هذا الإله قائلاً: "فدعا (أي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) إلى إله يصمد إليه ويعلم من حيث الجملة.. ولا يشهد ولا تدركه الأبصار، للطفه وسريانه في أعيانه الأشياء، فلا تدركه الأبصار كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها وصورها الظاهرة، وهو اللطيف الخبير، والخبرة ذوق، والذوق تجل، والتجلي في صور فلا بد منها، ولا بد منه، فلا بد أن يعبده من رآه بهواه إن فهمت.." أ.هـ، ثم يقول مستهزئاً بعقول الجاهلين: "وعلى الله قصد السبيل..".

وأظنك أيها القارئ قد فهمت الآن العقيدة التي دعا إليها ابن عربي والإله الذي تخيله، وهو ما زعم أنه الروح الذي يسري في جميع الموجودات، بل الموجودات هي صورته الظاهرة.. وهي عينه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ولم يكتف أن ينسب هذا إلى نفسه، ومن شايعه، بل زعم أن هذه هي عقيدة موسى وعيسى ومحمد، بل وجميع الأنبياء والمرسلين الذين عرفوا الأمر على حقيقته، وأن الرسول قد أعطاه هذا الكتاب، ليخرج به على الناس ليبلغهم الدين الحق، والرسالة الصحيحة، وأنه نقل فقط، وما تصرف في شيء، بل سار في حدود ما أمر به، ولم يزد حرفاً واحداً.

4- ولم تستطع عقبة أن تقف أمام ابن عربي لترده إلى صوابه، وليعلم العقيدة الحقة، ولكنه مضى في شوط التلبيس والتخطيط إلى منتهاه.

وكانت من هذه العقبات العقيدة في النار: جهنم التي أعدها الله للكافرين، والتي يصطرخون بها: {ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون} (المؤمنون:107) والتي يتمنون فيها الموت، بل يكون هو منتهى آمالهم وغاية مطلبهم {ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك} فيرد عليهم مالك قائلاً {إنكم ماكثون} (الزخرف:77)، جهنم التي يدعو أهلها على أنفسهم بالويل والثبور، ويرد الله عليهم قائلاً: {لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً} (الفرقان:14) لأنه لا استجابة لهم، ولا خروج منها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وآيات كثيرة في وصف جهنم، وبشاعتها وحرقتها، وعذاب أهلها بها، كل هذه الآيات لم تمنع ابن عربي الذي حكم لقوم نوح بالمعرفة والإيمان، ولقوم فرعون ولكفار مكة كذلك، بل لكل كافر على الأرض أنه ما عبد إلا الله في صورة من الصور، أقول: كذلك هذه الآيات لم تمنع ابن عربي أن يحكم لأهل النار بالنعيم المقيم، والسعادة والهناء. وأين ذلك؟.. في النار نفسها، هذه النار التي وصفها الله بما وصف، ووصف أهلها بما وصف.. هذه النار دار سعادة عند ابن عربي، لا دار شقاوة وعذاب، بل دار عذوبة وهناء. وهاك نص عبارته في ذلك:

"وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد، فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صاين"

(الفصوص ص94)

فانظر كيف جعل نعيم النار كنعيم الجنة، لأن الأمر واحد في زعمه، وأن العذاب من العذوبة، وأن النار قشرة تخفي وراءها النعيم المقيم لأهل النار.

ويقول أيضاً: "فمن عباد الله من تدركه تلك الآلام في الحياة الأخرى في دار تسمى جهنم، ومع هذا لا يقطع أحد من أهل العلم الذين كشفوا الأمر على ما هو عليه إنه لا يكون لهم في تلك الدار نعيم خاص بهم، إما بفقد ألم كانوا يجدونه، فارتفع عنهم، فيكون نعيمهم راحتهم عن وجدان ذلك الألم.. أو أن يكون النعيم مستقلاً زائداً كنعيم أهل الجنان والله أعلم". انتهى (الفصوص ص114).

ومع أنه تناقض هنا مع ما قرره في أبياته السابقة، وقال: يكون النعيم لأهل النار بفقد آلام سابقة، أو بحصول لذة ومتاع بالنار كنعيم الجنة و (أو) تقتضي الشك، ولذلك قال: والله أعلم، مع العلم أنه قال في مطلع الكتاب وفي ثناياه أنه ينقل عن الله بلا زيادة ولا نقصان.. فانظر هذا التهافت والتخبط والعمى.. نعوذ بالله من الخذلان.

أقول مع هذا يعود ويقرر دون شك أن النار ستكون برداً وسلاماً على أهلها، كما كانت نار إبراهيم برداً وسلاماً عليه، يقول في (الفصوص ص169): "وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم ولكن في النار.. إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العقاب أن تكون برداً وسلاماً على من فيها، وهذا نعيمهم، فينعم أهل النار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل الله حين ألقي في النار، فإنه عليه السلام تعذب برؤيتها. وبما تعود في علمه، وتقرر من أنها صورة تؤلم من جاورها من الحيوان" أ.هـ.

5- أظنك أيها القارئ الكريم قد عرفت الآن فرعيات هذه العقيدة الصوفية الباطلة، ولمزيد من هذه المعرفة والتوضيح سأنقل إليك بياناً واضحاً من كلام ابن عربي أو الشيخ "الأكفر أو الأكبر" كما يسمونه، مما تتصور به هذه العقيدة، ويكفي في إبطالها أن تتصورها، فهذه العقيدة لا تحتاج إلى رد يبطلها، وإنما تصورها تصوراً صحيحاً يكفي لبطلانها. فما عرف البشر في تاريخهم الطويل كفراً وإلحاداً أعظم من هذا الكفر؛ فإن الله تبارك وتعالى استعظم مقالة من قالوا: {اتخذ الله ولداً} سبحانه وتعالى عن ذلك قائلاً: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً* ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً} (الكهف:4-5).

وقال جل وعلا: {وقالوا اتخذ الرحمان ولداً* لقد جئتم شيئاً إداً* تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً* إن كل من في السماوات والأرض إلا ءاتي الرحمن عبداً* لقد أحصاهم وعدهم عداً* وكلهم ءاتيه يوم القيامة فرداً} (مريم:88-95).

فإذا كانت السماوات تكاد تنفطر من تلك المقالة الخبيثة، بل وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، فكيف بمن ينسب كل شيء خبيث في الأرض إلى ذات الله، بل جعله عين الله؟!.. فالذين نسبوا لله ولداً نسبوا شيئاً صالحاً كنبي أو ملك، أما الذي جعل الله عين كل شيء..

أقول: إن تصور هذه العقيدة يكفي لبطلانها عند من له أدنى حس أو شعور، ولا أقول عقل ولب، فالقضية لا تحتاج معقولية لردها، وإنما تحتاج قليلاً من

الإحساس والشعور، والحياء والخجل، وقد لبّس هؤلاء الشياطين على الناس زاعمين أن كلامهم لا يفقهه إلا من ذاق ذوقهم، ووجد وجدهم، وعرف معرفتهم، هأنا ذا أعطيك مفاتيح هذه المعارف الباطلة، والذوق الخبيث، والوجد اللعين، لتعرف الأمر عندهم على ما هو عليه، ولذلك فسأسرد لك طائفة أخرى من الشرح التفصيلي لهذه العقيدة، وكل هذا الشرح من كلام القوم حتى لا يبقى عندك في الحق لبس، ولتعلم أيضاً أن من زعم منهم أن هذا الكلام المنقول عن أساتذة الضلال إنما هو شطح فقط، وغلبة حال فزعمه باطل، لأن الأمر ليس شطحاً، وإنما هو عقيدة فلسفية مقررة مشروحة في عشرات الكتب، وأن كل آي القرآن قد حرفوها واستدلوا بها، ليغيروا عقيدة المسلمين الحقة في إلههم سبحانه وتعالى، الذي يتصف بصفات الكمال، والذي لا يشبه أحداً من خلقه، بل هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولمن يكن له كفواً أحد.

يقول ابن عربي شارحاً عقيدته مستدلاً عليها بالحديث الموضوع: "من عرف نفسه عرف ربه" قال: "قال عليه السلام: "من عرف نفسه عرف ربه"، وهو أعلم الخلق بالله، فإن بعض الحكماء وأبا حامد ادعوا أنه يعرف الإله من غير نظر في العالم، وهذا غلط، نعم تعرف ذات قديمة أزلية، لا تعرف أنها إله حتى يعرف المألوه، فهو الدليل عليه، ثم بعد هذا في ثاني حال يعطيك الكشف أن الحق نفسه كان عين الدليل على نفسه وعلى ألوهيته، وأن العالم ليس سوى تجليه في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه، وأنه يتنوع ويتصور بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالها، وهذا بعد العلم به منا أنه إله لنا، ثم يأتي الكشف الآخر، فيظهر لك صورنا فيه، فيظهر بعضنا لبعض في الحق، فيعرف بعضنا بعضاً" أ.هـ (الفصوص ص81،82).

فهنا قد أنكر ابن عربي على أبي حامد وبعض المتصوفة الآخرين الذين قالوا: إن الحق لا يشترط لمعرفته النظر في الكون، بل قد يأتي ذلك عن طريق الكشف رأساً دون استدلال بالكون المشاهد على الخالق سبحانه وتعالى. وقال ابن عربي: "إن هذا لا يكفي إلا لمعرفة ذات قديمة أزلية، ولكن لا بد من النظر في الكون لتعلم أن الذي تشاهده هو الحق، وهو الدليل على الحق، أي أن الصور المشاهدة في الكون هي الله، وهي الدليل عليه، ثم يأتي بعد ذلك الكشف الآخر الذي يتحقق الإنسان فيه من نفسه أيضاً بأنه نفسه صورة من صور الحق، فعند ذلك يعرف نفسه، فيعرف ربه، يعرف نفسه أنه الله، فيعرف الله أنه كل موجود.."

ولم يكتف ابن عربي بأن يتبع أسلوب الثعالب في اللف والدوران والمراوغة، بل اتبع أيضاً أسلوب الاستفزاز لكل مؤمن، والنيل من عقيدة الإسلام بكل احتقار واستهزاء، ويدلك على ذلك أن اسم الله عز وجل (العلي) يفهم منه سلف الأمة وعلماؤها الأفاضل أن المقصود به العلو الحقيقي المستلزم مباينته تعالى لخلقه، والعلو المجازي الذي هو علو المكانة، فالله علي بذاته سبحانه وتعالى لأنه فوق عرشه، والعرش سقف المخلوقات كما مدح نفسه بذلك في سبع آيات من كتابه الكريم، وكما قال مالك بن أنس:

"الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة"، وأما المكانة فمنزلة الله عز وجل فوق كل منزلة، فهو العلي العظيم سبحانه وتعالى، والخالق القوي القدير، وما سواه معبود مربوب مقهور، فحتى العلماء الذين نفوا عن الله العلو

الحقيقي، وأثبتوا علو المكانة فقط ما نفوا عن الله هذه الصفة، ولكن انظر إلى ابن عربي كيف فهم هذه الصفة، وطبقها حسب عقيدته الباطلة:

قال (الفصوص ص76-77): "ومن أسمائه الحسنى العلي، على من.. وما ثم إلا هو؟ فهو العلي لذاته. أو عن ماذا. وما هو إلا هو؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى المحدثات هي العلّية لذاتها، وليست إلا هو، فهو العلي، لا علو إضافة، لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمت رائحة من الوجود، فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات، والعين واحدة من المجموع في المجموع، فوجود الكثرة في الأسماء، وهي النسب، وهي أمور عدمية، وليس إلا العين الذي هو الذات فهو العلي لنفسه لا بالإضافة، فما في العالم من هذه الحيثية علو إضافة لكن الوجوه الوجودية متفاضلة، فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة، لذلك نقول في: هو لا هو، أنت لا أنت، قال الخراز (رحمه الله تعالى) وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله تعالى لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه، وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات".

فانظر استهزاءه باسم الله (العلي) حيث يقول: على من؟ وعن ماذا؟ وليس في الوجود غيره، فهو المحدثات، بل هو المسمى أبو سعيد الخراز، وأبو سعيد هذا أحد أئمة القوم في القرن الثالث الهجري..

وانظر كيف جعلوا العلو إنما هو لبعض المحدثات على بعض، وما دام أن جميع المحدثات هو الحق، وهو الله عندهم، فلا يوصف الله بالعلو إضافة أبداً، لأنه ليس شيء غيره في الكون، ولكن يوصف -عندهم- بالعلو لذاته فقط.

ولا يتورع ابن عربي مع ذلك أن ينسب ما في الوجود من شر وقبائح وظلم وسفك دم إلى الله، بل يجعل كل ذلك هو الله فيقول: "فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية، حيث لا يمكن أن يفوته نعت منها، وسواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة" (الفصوص ص79).

فانظر كيف جعل مسمى الله يستغرق جميع الأمور الوجودية، سواء كانت ممدوحة في العرف والعقل والشرع، أم كانت مذمومة في العرف والعقل والشرع، وليس هناك كفر على الأرض أكبر من هذا الكفر، بل ليس هناك وقاحة وسوء أدب مع الله أعظم من هذا، فاللهم رحمتك بنا ونقمتك بأولئك، أبعدهم الله..

ولقد كرر هذا المعنى كثيراً في كتابه فقال أيضاً: "ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص وبصفات الذم؟" (الفصوص ص80).

ولم يكتف بهذا القول المجمل، بل فصل ذلك أيضاً حيث جعل الكبش الذي أنزله الله فداءً لإسماعيل من الذبح هو الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

قال ابن عربي:

فيا ليت شعري كيف ناب بذاته شخيص كبيش عن خليفة رحمان

(الفصوص ص84)

فوقتاً يكون العبد رباً بلا شك ووقتاً يكون العبد عبداً بلا إفك

فإن كان عبداً كان بالحق واسعاً وإن كان رباً كان في عيشة ضنك

(الفصوص ص90)

بل لم يكتف بهذا أيضاً حتى زعم أن الحق لا يشهد أتم شهود، ولا يعرف حق المعرفة إلا في المرأة.. حال اللذة والشهوة.. وهاك نصوص عباراته القبيحة في ذلك، ووالله لولا وجوب بيان هذا الباطل وتحذير الأمة منه ما كان لي أن أخط قلماً بهذا الإثم والفجور، ولكن ما حيلتنا وبين أظهرنا من يدافع عن هذا الباطل، ويعتقد الولاية لقائليه، بل ويكفّر من تعرض لهذا الإثم والفجور، ويرميهم بالكفر والزندقة، وهؤلاء الضالون قد ملؤوا أكبر المراكز الدينية في بلادنا، واتبعهم عوام الناس دون وعي منهم بما خلف هذه العمائم الفارغة، والشهادات الزائفة من الإثم والفجور والباطل؟!

هذا ابن عربي سيد الصوفية وشيخها من لدنه إلى هذا يفسر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: [حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة] فيقول:

"اشتق الله من الإنسان شخصاً على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته فحن إليها حنين الشيء إلى نفسه، وحنت إليه حنين الشيء إلى وطنه، فحببت إليه النساء، فإن الله أحب من خلقه على صورته، وأسجد له ملائكته النوريين على عظم قدرهم ومنزلتهم، وعلو نشأتهم الطبيعية، فمن هناك وقعت المناسبة والصورة أعظم مناسبة، وأجلها وأكملها" (الفصوص ص216).

وقبل أن نستطرد في النقل عن ابن عربي أشرح لك الإفك الذي أفكه هنا، فقد زعم أن الإنسان أحب المرأة، لأنها جزء منه ولا مانع في ذلك، وقد يكون هذا قولاً صحيحاً، ثم قاس على هذا أن الله أحب الإنسان لأنه خلقه على صورته، يعني أن ابن آدم ظهر في الوجود على صورة الرحمن، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فكان ابن عربي مشبهاً لله بخلقه أيضاً، وهذا القول منه يخالف عقيدته السابقة في وحدة الوجود، وأن جميع الموجودات هي صورة للحق، ولا تنفرد صورة واحدة بأن تكون مثلاً للخالق بل جميع الصور ذاتها ذات الخالق، وهذا يدلك على تناقضه وخبثه وثعلبيته، ويجعل السبب الذي من أجله أحب الله الإنسان أن الصورة التي خلق عليها هي أعظم مناسبة وأقرأ عبارته السابقة مرة أخرى حتى تفهم ما يقول. ثم يستطرد ابن عربي شارحاً ومفلسفاً عقيدته قائلاً:

"فإنها زوج (أي صورة الإنسان آدم) أي شفعت وجود الحق كما كانت المرأة شفعت بوجودها الرجل، فصيرته زوجاً، فظهرت الثلاثة: حق ورجل وامرأة!!! فحن الرجل إلى ربه الذي هو أصله حنين المرأة إليه، فحبب إليه ربه النساء، كما أحب الله من هو على صورته، فما وقع الحب إلا لمن تكوّن عنه، وقد كان حبه لمن تكوّن منه، وهو الحق، فلهذا قال (حبب) ولم يقل (أحببت) من نفسه، لتعلق حبه بربه الذي هو على صورته حتى في محبته لامرأته، فإنه أحبها بحب الله إياه تخلقاً إلهيا") أ.هـ.

فانظر كيف جعل حب الرجل للمرأة من التخلق بأخلاق الله في زعمه، لأن الله قد أحب محمداً الذي خلقه على صورته (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، ولأن محمداً هو أول موجود حسب عقيدة ابن عربي.

ثم يستطرد ابن عربي في عباراته الوقحة الكافرة القبيحة قائلاً:

"ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصل التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أمر بالاغتسال منه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أن يلتذ بغيره!! فطهره بالغسل، ليرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهد في نفسه -من حيث ظهور المرأة عنه- شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكوّن عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا وساطة، فشهوده للحق في المرأة أم وأكمل.. ولأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل.. ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة، فلهذا أحب الرسول صلى الله عليه وسلم النساء، لكمال شهود الحق فيهن.. إذ لا يشهد الحق مجرداً عن المواد أبداً.." (الفصوص ص 217).

وأظن ليس بعد هذا الكلام كلام، وليس بعد هذا البيان بيان، ولا يملك المسلم الذي عصمه الله من هذا التردي الخلقي والعقلي إلا أن يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك).

ويستطرد ابن عربي مقرراً هذا المعنى شارحاً له بمثل هذه العبارات: "فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله..".

وقائلاً أيضاً: "فمن أحب النساء على هذا الحد فهو حب إلهي". وقائلاً بعد هذا أيضاً:

صح عند الناس أني عاشق غير أن لم يعرفوا عشقي لمن

(الفصوص ص218)

الفصل السادس

طريقة المتصوفة

في الإعراب عن عقيدتهم الباطنية

مع بداية القرن الثالث الهجري ابتدأ المتصوفة بالتصريح بشيء من علومهم الباطنة فأنكر بعضهم على بعض، فهذا الجنيد يقول للشبلي: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ" فرد عليه الشبلي بقوله: "أنا أقول وأنا أسمع فهل في الدارين غيري" (التعرف على مذهب التصوف ص145).

وقول الشبلي هذا هو بدايات القول بوحدة الوجود.

ثم ابتدأت جماعة من المتصوفة تصرح بشيء من هذا العلم الباطن الذي لم يكن في حقيقته إلا القول بالحلول، الفناء في ذات الله الذي تقول به العقيدة الهندية البرهمية، والقول بوحدة الوجود، وكان هذا في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع. وهذه طائفة من هذه الأقوال التي ظهرت على أفواه القوم، وكانت تخفي تحتها العقيدة الباطنة التي زعموا أنها في منتهى الكمال والرقي في سلم التعبد الإسلامي.

أ- ذكر أبو نصر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع في التصوف، وهو الكتاب الذي نشره الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور أن أبا حمزة الصوفي دخل دار الحارث المحاسبي فثغت (ثغاء الشاه: صوتها) شاة الحارث، فشهق أبو حمزة شهقة وقال: "لبيك يا سيدي"!! فأنكر عليه الحارث المحاسبي، فقال له أبو حمزة: إن إنكارك علي يشبه أحوال المريدين المبتدئين" (اللمع في التصوف ص495) أي الذين لم يصلوا بعد إلى التحقق من وحدة الوجود.

ب- وهذا أبو الحسين النوري يسمع كلباً يعوي فيقول: "لبيك وسعديك" (اللمع ص 492).

ج- وهذا الشبلي أيضاً يقول لأحد زواره عند خروجه: "أنا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلاءتي".

د- وكان من أجرأ هؤلاء الذين صرحوا بهذا العلم الباطن الحلاج وقبل أن أستشهد بشيء من أقواله أحب أن أقدم هذه المقدمة عنه:

نشأ الحلاج في أواخر القرن الثالث الهجري، وهو من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط بالعراق، وصحب الجنيد الذي يعتبر سيد الطائفة الصوفية، وأبا الحسين النوري والفوطي، وقد قتل ببغداد، وصلب يوم الثلاثاء السادس من ذي القعدة سنة تسع وثلاث مئة وعموم المتصوفة راضون عنه، وإن كان قد رده بعضهم بعد قتله خوفاً على أنفسهم، ولكن ذكر الأقدمون منهم أقواله في كتبهم دون ذكر اسمه، بأن يقولوا مثلاً: قال أحد الكبراء (وهذا صنيع أبي بكر محمد الكلاباذي الذي ألف الموسوعة الصوفية الثانية بعد اللمع، وهو كتابه (التعرف على مذهب أهل التصوف) وكذلك صنيع السراج الطوسي صاحب الموسوعة الصوفية الأولى (اللمع) وقد استشهد بكلام الحلاج في أكثر من خمسين موضعاً من كتابه مصدراً القول بقوله: قال بعضهم، أو قال القائل) (انظر مقدمة كتاب الحلاج ص11) ولم يستطيعوا التصريح باسمه، وهذا صنيع أكبر رجلين كتبا في التصوف في القرن الرابع، وهما أبو بكر محمد الكلاباذي المتوفي سنة 380هـ وأبو نصر السراج

الطوسي المتوفي سنة 378هـ،وقد بالغت طائفة منهم بالثناء عليه حتى قال عنه محمد بن خفيف: "الحسين بن منصور عالم رباني" (طبقات الصوفية ص308).

وفي القرن الخامس وما يليه ابتدأ المتصوفة يصرحون باسمه، ويذكرون مقالاته، ويشهدون بفضله وسعته، فقد أشاد به أبو حامد الغزالي، وابن عربي، وعبدالغني النابلسي وكل المتصوفة منذ القرن الخامس. وأما في العصر الحديث فقد كتب فيه طه عبدالباقي سرور كتاباً بعنوان: (الحلاج شهيد التصوف الإسلامي) وقد جعله في هذا الكتاب ثائراً على الفساد، ومصلحاً إجتماعياً، وداعية إسلامياً إلى الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى سياق البحث، وهو أن أجرأ الناس في إظهار العقيدة الباطنية للفكر الصوفي كان الحسين بن منصور الحلاج، وهذه الجرأة هي التي أدت بعد ذلك إلى القتل والصلب، ولقد كان هناك من المتصوفة من هم على عقيدته ولكنهم كتموا. يقول الشبلي:

"كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمت" (الحلاج لطه عبدالباقي سرور)، ومن أبرز ما صرح به الحلاج عن المعتقد الباطن للتصوف ما أنقله بنصه عن كتاب الطواسين للحلاج (نشر لويس ماسنيون) قال الحلاج (طاسين الأزل والالتباس).

"ما صحت الدعاوي لأحد إلا إبليس وأحمد، غير أن إبليس سقط عن العين، وأحمد كشف له عن عين العين، قيل لإبليس: اسجد، ولأحمد: انظر. هذا ما سجد وأحمد ما نظر، ما التفت يميناً ولا شمالاً، {ما زاغ البصر وما طغى} أما إبليس فإنه دعا لكنها ما رجع عن حوله، وأحمد ادعى ورجع عن حوله بقوله: [بك أحول وبك أصول] وبقوله: [يا مقلب القلوب] وقوله: [لا أحصي ثناء عليك].

وما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس، حيث إبليس تغير عليه العين، وهجر الألحاظ في السير، وعبد المعبود على التجريد، ولُعن حين وصل إلى التفريد، وطُلب حين طلب المزيد.

فقال له: (اسجد) قال: "لا غير" قال له: (وإن عليك لعنتي) قال: "لا غير"، مالي إلى غيرك سبيل، وإني محب ذليل، قال له: (استكبرت) قال: لو كان لي معك لحظة لكان يليق بي التكبر والتجبر، وأنا الذي عرفتك في الأزل (أنا خير منه) لأن لي قدمة في الخدمة، وليس في الكونين أعرف مني بك، ولي فيك إرادة، إرادتك في سابقة، إن سجدت لغيرك، فإن لم أسجد لا بد من الرجوع إلى الأصل، لأنك خلقتني من النار، والنار ترجع إلى النار، ولك التقدير والاختيار، تيقنت أن القرب والبعد واحد!!" ثم يستطرد الحلاج قائلاً:

"التقى موسى وإبليس على عقبة الطور، فقال له: يا إبليس ما منعك عن السجود؟ قال: منعني الدعوة بمعبود واحد، ولو سجدت له لكنت مثلك، فإنك نوديت مرة واحدة.. انظر إلى الجبل.. فنظرت، ونوديت أنا ألف مرة أن أسجد فما سجدت لدعواي بمعناي، فقال: تركت الأمر؟ قال: كان ذلك ابتلاء لا أمراً، فقال له: لا جرم قد غير صورتك. قال: يا موسى ذا وذا تلبيس، والحال لا يعول عليه فإنه يحول، لكن المعرفة صحيحة كما كانت وما تغيرت وإن الشخص قد تغير.

فقال موسى: الآن تذكره؟ فقال: يا موسى الفكرة تذكر، أنا مذكور وهو مذكور، ذكره ذكري، وذكري ذكره، وهل يكون الذاكرون إلا معاً.

خـدمتي الآن أصـفى، ووقـتي أخلى، وذكـري أجلى، لأني كنت أخدمـه في القـدم لحظي، والآن أخدمه لحظِّه".

ثم استطرد بعد ذلك قائلاً: "وفي أقوال عزازيـل (زعم المتصـوفة أن إبليس كـان يسمى عزازيل قبل أن يطرد من رحمة الله) أحـدها أنـه كـان في السـماء داعيـاً وفي الأرض داعياً: في السماء دعي الملائكة بـربهم المحاسـن، وفي الأرض دعـا الإنس بربهم القبائح، لأن الأشياء تعرف بأضدادها".

وفي هذه الصياغة الطويلة لمعصـية إبليس تسـتطيع الآن أن تلم بملامح العقيـدة الصوفية الباطنية، ونستطيع أن نلخصها على النحو التالي:

1- أعبد الناس في كلام الحلاج هو إبليس والرسول صلى الله عليه وسلم، وانظر كيف ينظمهـا عـدو اللـه في سـلك واحـد، ثم يسـتدل على ذلـك بـأن إبليس أمـر بالسجود فلم يسجد، والذي منعه من ذلك هو مشيئة الرب فيـه وجـبر الـرب لـه. وتحققه أن لا موجود إلا هو، وأن القرب والبعـد من الـرب واحـد، لأنـه ليس على الحقيقة إلا الله، وأن إبليس قد كان داعياً للملائكة إلى المحاسن، بإقامة الله لـه، وفي الأرض إنما هو داع إلى القبائح، وما هو في الحقيقـة إلى قـائم بمـراد الـرب ومشيئته.

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم -وحاشاه- فقد أصبح أعبد النـاس عنـد الحلاج -وهذا من التلبيس- لأن الله أمره في السماء أن ينظر إليـه، فمـا نظـر، واسـتدل على ذلك بقوله تعالى: {ما زاغ البصر وما طغى} والآية في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وأن البصـر مـا زاغ ولا طغى، وهو ينظر إلى جبريل (فانظر كيف حـول الحلاج الآيـة عن معناهـا، وأن المقصود بها هو: ما زاغ البصر أي ما نظر إلى اللـه، لأنـه ليسـت هنـاك ذات مستقلة لله تبارك وتعالى في زعم الصوفية، بل ذاتـه هي ذات موجوداتـه. انظـر هذا في كلام النابلسي الآتي).

وأما الدليل الآخر الذي ساقه الحلاج، فهو قول الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم: [اللهم بك أصول وبك أجول وبك أقول] (هو جزء محرف من حديث رواه أبو داود في (سننه 2632) عن أنس بن مالك، ولفظه: كان رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم إذا غزا قال: [اللهم أنت عضـدي ونصـيري، بـك أجـول، وبـك أصـول، وبـك أقاتل] وصحح إسناده أستاذنا الألباني في (تخريج الكلم الطيب ص75) كمـا رواه ببعض اختصار الترمـذي (2/278) وحسـنه، وأحمـد (6/16)) والمعـنى الـذي هـو مراد الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم هـو معـنى لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، فلا يستطيع أحد أن يفعل خيراً، أو يوفق إلى خير إلا بحـول اللـه وقوتـه ولكن الحلاج قلب هـذا المعـنى إلى عقيدتـه الخبيثـة في الـرب جـل وعلا، وجعـل معناهـا أن الرسول قال ذلك لأنه كان متحققاً أنه هو هو، أي أنه هو الله!!.

وأما موسى في نظر الحلاج فلم يكن على معرفة بحقيقة الرب، ولذلك قـال لـه: (رب أرني أنظر إليك).

ولقد كان من الجرأة بمكان أن يظهر الحلاج دعوته وعقيدته على هـذا النحــو من الصراحة والوضوح، ولقد كان يعاصره عدد كبير من المتصوفة في العراق وإيران والشــام، ولكنهم قنعــوا بالإشــارات والرمــوز إلى عقيــدتهم، ولم يقنــع هــو إلا بالتصريح، وقد سمى هو هـذا المقـام الـذي وصـل إليـه مقـام الفتـوة، وفي ذلـك يقول:

"تناظرت مع إبليس وفرعون في الفتوة (الفتوة التي عناها الحلاج هنا هي الجرأة في إظهار معتقده، وأستاذه في ذلك كما يقول إبليس وفرعون!!)، فقـال إبليس: إن سجدت سقط عني اسم الفتوة، وقال فرعـون: إن آمنت برسـوله سـقطت من منزلـة الفتـوة، وقلت أنـا أيضـاً: إن رجعت عن دعـواي وقـولي سـقطت من بساط الفتوة!! وقال إبليس:أنا خير منه، حين لم ير غيره غـيراً، وقـال فرعـون : (مـا علمت لكم من إلـه غـيري) حين لم يعـرف في قومـه من يمـيز بين الحـق والباطل!! وقلت أنا: إن لم تعرفوه فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر، وأنا الحـق لأني ما زلت أبداً بالحق حقاً!! فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، وإبليس هـدد بالنـار ومـا رجـع عن دعـواه، وفرعـون أغـرق في اليم ومـا رجـع عن دعـواه، ولم يقـر بالواسـطة أبـداً، وإن قتلت أو صـلبت أو قطعت يـداي ورجلاي، مـا رجعت عن دعواي" (الطواسين ص52).

وهـذا الـذي وصـل الحلاج إليـه قـد كـان عقيـدة لكثـير من معاصـريه، ولكنهم لم يستطيعوا التصريح بـه بنفس الوضـوح والصـراحة الـتي صـرح بهـا الحلاج، يقـول الشبلي: "كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت" وقد مرّ بك هذا القول.

ولقد حاول الحلاج أن ينقل عموم المتصوفة إلى موقفه، ولذلك لم يفتـأ يحـركهم نحـو هـذه الغايـة، ففي الرسـالة القشـيرية أنـه لقي إبـراهيم الخـواص فقـال لـه الحلاج: ماذا صنعت في هذه الأسفار، وقطع هذه المفاوز؟ قال: بقيت في التوكل أصحح نفسي عليه. فقال الحلاج: أفنيت عمرك في عمران باطنـك، فـأين الفنـاء في التوحيد!!

ويدخل الحلاج مسجد بغداد، ويرى الجنيد يتكلم على المنبر والجنيد سيد الطائفـة في وقته فيقول له: يا أبا القاسم إن الله لا يرضى من العالم بـالعلم حـتى يجـده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك، وإلا فانزل، فـنزل الجنيـد ولم يتكلم على الناس شهراً (أخبار الحلاج طبع ماسنيون).

وهذا القول من الحلاج للجنيد إنكار شديد عليه، وأمر لـه بـأن يظهـر مـا يعتقـده، وبأن يتحقق ظاهراً فيما تحقق فيه باطناً. وهذا معنى قوله: "فـإن كنت في العلم فالزم مكانـك" أي إن كنت قـد وصـلت إلى حقيقـة معتقـد التصـوف فـالزم هـذا المكان، وأظهر ما تعتقد. والحلاج هنا لم ينكر على الجنيد معصية شرعية ظاهرة، ولكنه أنكر عليه إظهاره من علوم الشريعة للعامة ما يخـالف مـا وصـل إليـه من عقيدة التصوف، ولذلك احتجب عن الناس شـهراً لا يكلمهم، ولم يسـتطع الجنيـد أن يظهر ما أظهر الحلاج، لأنه كان يعلم نهاية الإفصاح عن حقيقة المعتقد.

ولذلك روى أبو عبدالرحمن السـلمي في طبقاتـه في ترجمـة الشـبلي أن الجنيـد قال للشبلي "لو رددت أمرك إلى الله لاسترحت" فقال الشبلي: "يا أبـا القاسـم لو ردّ الله أمرك إليك لاسترحت" فقـال الجنيـد: "سـيوف الشـبلي تقطـر دمـاً!!" (الطبقات ص343).

والمعـنى الـذي عنـاه الجنيـد في كلامـه للشـبلي أنـه إذا استسـلم لأمـر اللـه، واسترسل معه كما يقولون: التصوف الاسترسال مع الله (يعـني المتصـوفة بهـذا القول أن لا يكون لك اختيار وفعل، بل تترك مشيئة الـرب تسـيرك، وهـذا معنـاه هـدم الإرادة البشـرية وتـرك الوسـائل كلهـا) أي تـرك الاختيـار معـه لاسـترحت وهدأت.

فرد الشبلي عليه بعكس العبارة وبالمعنى نفسه!! ومعنى عبارة الشبلي أن اللـه قد جبر العبد وأقامه بما هو فيه، ولم يردّ أمره إليه، بل جعل أمر العبـد إليـه هـو، ولو رد أمر العبد إلى نفسه لاستراح، واختار ما يحلـو لـه. وكـانت عبـارة الشـبلي للدلالة على المعنى أصرح من عبارة الجنيـد، ولـذلك قـال الجنيـد رداً على ذلـك: سيوف الشبلي تقطـر دمـاً. أي أنـه بهـذا التصـريح عن معتقـده سـيعرض نفسـه للقتل!!

ومما يدل على ذلك أن الحلاج عنـدما أحضـر للقتـل والصـلب جمعت المتصـوفة، وأرغموا على النيل من الحلاج وسبه، وكان ممن أحضروا لذلك الشـبلي، ووضـعوا المنـديل في رقبتـه، وسـحبوه إلى الحسـين بن منصـور الحلاج ليلعنـه فتـأبى من ذلك، فأمره الجند بـأن يـذهب بنفسـه أو يرسـل من يلعن الحلاج، فأرسـل امـرأة متصـوفة، وأمرهـا أن تقـول للحلاج: إن اللـه قـد ائتمنـك على سـر من أسـراره فأذعته؛ فأذاقك طعم الحديد!! (ماسنيون. وانظر نشرات الصوفية).

وهذه الروايات كلها تدل على أن أفراد الطائفة في القرن الثـالث الهجـري كـانوا على علم باطني واحد قد تفاوتوا في إظهاره وإعلانه!!

(طريق الوصول إلى العلم الباطن):

ولقد ظن كثـير من النـاس أن هـذا العلم البـاطني كـان نتيجـة للصـلاح والتقـوى، والمداومة على التسبيح والذكر، فداوم على هـذا وسـار في طـريقهم زمانـاً علـه يظفر بما يظفرون به، ولكنه لم يصل إلى شـيء، من هـؤلاء من يحـدثنا عنـه أبـو حامـد الغـزالي في كتابـه الإحيـاء يقـول (ج4 ص358): "حكي أن شـاهداً عظيم القدر من أعيان أهل (بسطام) كان لا يفارق مجلس أبي يزيـد البسـطامي فقـال يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر ولا أفطر، وأقوم ولا أنام، ولا أجد في قلـبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً، وأنا أصدق به وأحبه!

فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائـة سـنة، وقمت ليلهـا مـا وجـدت من هـذا ذرة!! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك. قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قـل لي حتى أعمله. قال: لا تقبله. قال: فاذكره لي حتى أعمل. قـال: اذهب إلى المـزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، واتزر بعبـاءة، وعلـق في عنقـك مخلاة مملوءة جـوزاً، واجمـع الصـبيان حولـك، وقـل.. كـل من صـفعني صـفعة أعطيتـه جوزة، وادخل السوق، وطف الأسواق كلها عند الشـهود وعنـد من يعرفـك، وأنت على ذلك!!

فقال الرجل: سبحان الله، تقول لي مثل هذا؟ فقال أبـو يزيـد: قولـك.. "سـبحان الله" شرك!! قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك، فسبحتها، وما سبحت ربك. فقال: هذا لا أفعله، ولكن دلـني على غـيره. فقـال ابتـدئ بهـذا قبـل كـل شـيء. فقال: لا أطيقه. فقال: قد قلت لك.. إنك لا تقبل..!."

والعجيب أن أبا حامد الغزالي يعقب على هذه القصة بقوله: فهذا الذي ذكره أبـو يزيد هو جزاء من اعتل بنظره إلى نفسه.

فهذا الرجل الصالح الذي صام دهره وأقام ليله، يرجو الوصول إلى علـوم القـوم، وما جاءه خاطر، ولا مرّ به هاتف، تعجب من هذا وشكا إلى أبي يزيـد، فقـال لـه: لن تصل إلى شيء لأنك محجوب بنفسك. ومعنى ذلك أنه يرى أنه القائم بالعبادة فيرى نفسه عابـداً للـه، وعقيـدة الصـوفية تعتقـد أن اللـه قـد أقامـك فيهـا، وأنـه اختارها لك، وتلك إرادته، ولا إرادة لك معه، وبالمقابل لا بد أن تعتقد أن اللـه قـد

أقام العصاة في معاصيهم، والكفرة في كفرهم، وإبليس في إغوائه (كما مـرّ بنـا في كلام الحلاج)، وكذلك أيضاً قال أبو يزيد لذلك الرجل عندما قال: سبحان الله: سبحان الله شرك. ثم قال له: كيف؟ قال: لأنك نزهت نفسـك عن فعـل السـوء، ولم تنزه الله الذي يفعـل السـوء ويريـده، ويقيم النـاس فيـه، فقـد عظم الرجـل نفسه في عقيدة أبي يزيد وطائفته عندما امتنع عن عمـل يقـوم اللـه بـه ويريـده ويحبه!!

ولهذا أمر أبو يزيد البسطامي ذلك الرجل ليصـل إلى هـذه الحقيقـة الصـوفية أن يفعل بنفسه ذلك الفعل المرعب، وبهذه الوسيلة التي تعتـبر مجاهـدة في عـرف التصوف سيتحقق يقيناً بهذا العلم الباطني، وهو أن الكون على هـذا النحـو مـراد لله سبحانه، ولذلك قالوا: "أقام العباد فيما أراد"!!

ولا شك أن الخطأ في فهم قضية القضاء والقدر قد جرت البلايا والفتن على كثير من الناس، والعياذ بالله، والسبب في ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يفرقوا بين علم الله الأزلي سبحانه وتعالى، وما سطره من مقادير الكون وفـق هـذا العلم، وأنـه سبحانه يعلم ما سيكون كيف يكـون، وبين الاختيـار والمشـيئة للعبـد الـتي جعلهـا الرب تبارك وتعالى أساساً ومناطاً للتكليف والحساب. فللعبد مشيئة خاصة يوقـع بها الفعل الذي يريده، ولكنه لا يوقعه جبراً على الله ورغماً عنه "وسيأتي لقضـية القضاء والقدر رسالة مستقلة إن شاء الله أرجو عون الله في إتمامها".

فالطاعة بتوفيقه وهدايته، والمعصية بإذنه سبحانه ومشـيئته، إذ لا يقـع في ملكـه إلا ما شاء، وهو سبحانه وتعالى القادر على منـع الكـافر من الكفـر، والفـاجر من الفجور، ولكنه الابتلاء والاختيـار والتكليـف: {ولـو شـاء ربـك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً} (يونس:99)، وقد جعل سبحانه وتعالى الهداية حقاً عليه لمن جاهـد في سبيلها، قال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهـدينهم سـبلنا} وقـال: {فأمـا من أعطى واتقى* وصدق بالحسـنى* فسنيسـره لليسـرى} وجعـل سـبحانه وتعـالى الضلال أيضاً ثمرة للسعي في طريقه، والحيدة عن هدى الله. قال تعالى: {فلمـا زاغوا أزاغ الله قلوبهم} وقال تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كمـا لم يؤمنـوا به أول مرة}.

وقال عز وجل: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شـيطاناً فهـو لـه قـرين} وقال تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} إلى آخر الآيـات الـتي تدل على أن الرب تبارك وتعالى لا يعجل الشـر ابتـداء، ولكنـه يعـاقب بـه جـزاء، وسبحانه وتعالى أن يبدأ الإنسان بالشر، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

فهؤلاء لم يفهموا هـذه العقيـدة الشـرعية الـتي بينهـا اللـه في كتابـه أتم البيـان، وشرحها رسوله صلى الله عليه وسلم غاية الشـرح. ظنـوا -وخـابت ظنـونهم- أن الشر والمعاصي والفجور مـرادة اللـه تبـارك وتعـالى إرادة حب وقبـول ورضـى، فقالوا ما قالوا، ولم يعلموا أنها مرادة لله أن تقع في ملكه فقط، فليسـت تفعـل من فاعليها رغماً عن الله سبحانه وتعالى، وعجزاً عن دفعها ومنعها، وحاشاه ربنـا سبحانه وتعالى عن ذلك، ولكنهـا إرادة وقـوع، ومشـيئة إذن وسـماح، ووراء ذلـك كله العقوبة لأهلها في الدنيا والآخـرة، والمذمـة واللعنـة والطـرد والإبعـاد لأهلهـا، وحاشا الله أن ينسـب هـذا إليـه [والشـر ليس إليـك] (هـو جـزء من حـديث رواه مسلم في (صحيحه-6/57-59 بشرح النووي) وأبو داود (760) وأحمد وغيرهم، وأولـه: [وجهت وجهي للـذي فطـر السـماوات والأرض حنيفـاً..] وهـو من أدعيـة استفتاح الصلاة المأثور عنه صلى الله عليه وسلم).

أقول إن هؤلاء المتصوفة لما لم يفهموا هذه الحقيقة الشرعية، رأوا أن فعل الكفرة والفجرة موافق للرب في إرادته ومحبته، وكذلك قال الحلاج عن إبليس وفرعون: إنهما عرفا الحقيقة، وأنهما قائمان بأمر الله في ذلك، ولهذا ما سجد إبليس، وما آمن فرعون إلا بأنه هو الله، ولهذا أيضاً ما رجع هو عن قوله.

والعجيب بعد هذا كله أن المتصوفة الذين جرهم سوء الفهم لقضية القضاء والقدر إلى هذه العقيدة الباطلة، والمعتقد السيء، زعموا أنهم وصلوا إلى هذا الفهم عن طريق الكشف والعلم اللدني والفيض الرحماني (العلم اللدني نسبة في زعمهم إلى قوله تعالى عن الخضر: {وعلمناه من لدنا علما} وهو بمعنى الفيض عندهم، ويعنون بكل ذلك انفتاح علم الغيب وحقائق الدنيا والآخرة عليهم!!)، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أوحى إليهم بهذا.

وبعد أن قدس المتصوفة الأقدمون علمهم الباطن على هذا النحو، وأظهره بعضهم بذلك الوضوح، وجعلوا علم الشريعة المنزلة على رسوله صلى الله عليه وسلم علماً خاصاً بالعوام، وجعلوا علمهم الباطني علماً خاصاً بالخواص يتلقى رأساً عن الله بطريق انكشاف حجاب الغفلة -في زعمهم- لم يكتف المتأخرون منهم بهذا التقسيم، بل غالوا إلى أن جعلوا علوم الشريعة مرحلة فقط لعلمه الباطني، وجزموا بأن من وقف عند علم الشريعة، وتقيد بظاهره فقط فلا ينجو من الآخرة، بل هو غافل عن دين محمد، شأنه شأن الكافرين.

يقول الشيخ عبدالغني النابلسي (وهو كما ترجم له صاحب "الأعلام" من كبار العلماء المتأخرين، له مصنفات كثيرة جداً في علوم الشريعة والتصوف والأدب، ولد ونشأ في دمشق، وتوفي بها سنة 1143هـ، يقول فيكتابه: "الفتح الرباني والفيض الرحماني ص133"): "فكل من اشتغل بالعلوم الظاهرة، ولم يعتقد أن وراء ما هو ساع في تعلمه من الفقه والحديث والتفسير حقائق وعلوماً باطنة، رمزها الشارع تحت ما أظهر من هذه الرسوم هي مقصودة له، لأنها المنجية عند الله تعالى، فهو غافل عن الله تعالى، جاهل بدين محمد صلى الله عليه وسلم، داخل تحت قوله تعالى: {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخر هم غافلون}" أ.هـ.

وقد ساغ في كلام الشيخ كما ترى أن يستدل بالآية السابقة على أن علوم الشريعة من الفقه والحديث والتفسير، العلم بها كالعلم بظاهر الحياة الدنيا. والغفلة بها عن العلم الباطني كالغفلة بعلوم الدنيا وزخرفها عن حقائق الآخرة!!.

(الذنب عند النابلسي):

لقد كتب الشيخ عبدالغني النابلسي هذا الكلام في كتابه الفتح الرباني، وقد قال في مقدمته: إنه يكتب كتابه هذا مترجماً عن الإلقاء الرحماني له مباشرة، وبغير وساطة، فهو وحي أو إلهام أو كشف حسب ما يدعيه، قال النابلسي في تعريف الذنب حسب العلم الباطني:

"اعلم أن الذنب له حقيقة متى علمت علم سره، ومتى علم سره علم جهره، وله حال ومقام، وله أقسام، وأنا أتكلم لك الآن في ذلك بحسب الوارد ترجمة عن الإلقاء الرحماني".

فالنابلسي عندما قرر في (ص133 من كتابه الفتح الرباني) أن علوم الشريعة لا تنجي وحدها من عذاب الآخرة، بل لا بد أن يدخل المتعلم إلى الحقائق والعلوم الباطنية التي ذكرت في الشريعة بالرمز فقط، ولم ينص عليها نصاً؛ وذلك لينجو

من عذاب الله يوم القيامة، عندما قرر النابلسي كل ذلك فإنما قرره ترجمــة عن الإلقاء الرحماني في زعمه، ولم يقرر ذلك إجتهاداً ورأياً!!

ولعلـك أخي القـارئ تحب أن تقـف على نمـاذج من هـذا الإلقـاء الرحمـاني على الشـيخ عبـدالغني النابلسـي، لتعلم الحقيقـة الباطنـة الـتي أرادهـا اللـه، وأرادهـا رسوله صلى الله عليه وسـلم -في زعم القـوم- والـتي تكلم اللـه ورسـوله عنهـا بطريق الرمز في زعمهم، والتي فهمها وعقلها، بل نزل الفيض الرحمـاني والفتح الرباني بها على الشيخ عبدالغني النابلسي!!

يقول الشيخ في بيان حقيقة الذنب:

"وأما الذنب بحسب باطن الأمر الإلهي المسمى الحقيقـة فهـو: الموافقـة للـرب سبحانه وتعالى في شيء مما أراد بنفسه من نفسه بعد وصول التبليغ عن نفسـه بنفسه إلى نفسه، ويرجع ذلك إلى تعيين وجود العبد" أ.هـ.

(ونفسه) هذه التي تكررت في العبارة خمس مرات هي مضمون وحـدة الوجـود، فالله نفسه هو المريد، وما أراد شيئاً بغيره، وإنمـا أراد بنفسـه، والمبلّـغ عنـه هـو الرسول، وهو الله نفسه في زعمهم، والمبلـغ إليهم هم البشـر، وهم اللـه نفسـه أيضاً -في زعمهم- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وحتى لا يظن القارئ أن تفسيري هذا تجن على الرجـل أنقـل نص عبـارة الشـيخ النابلسي في تفسيره للفقرة السابقة. يقول: "مـا ثم إلا ذات وصـفات، وصـفات صفات، وهي الأفعال، ومنفعلات وهي العالم فالأول هو المعبود، والثاني الموصل إليه وهو الوساطة، والثالث هو العابد، والرابع هـو العـائق والمـانع، والأول مرتبـة الله تعالى، والثاني مرتبة محمد صلى الله عليه وسلم، والثالث مرتبة المؤمــنين، والرابـع مرتبـة الشـيطان، وهـذه الأربعـة في الحقيقـة شـيء واحـد، لكنـه تـنزل وتفصل، فظهرت له هذه الأطوار وتعددت وجوداته" (الفتح ص51).

فهذا شرح واضح لوحدة الوجود التي ينقلها الشيخ عبدالغني النابلسي عن شـيخه الأكبر ابن عربي، فليس في الوجود عندهم إلا الله، وهذه الموجودات المشــاهدة جميعها صفاته، تعددت وتنوعت لتعرب عن الصفات الكثيرة التي يتصف بها الرب في زعمهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فـالمعبود والرسـول والمؤمنـون والشـياطين كلهم بنص النابلسـي شـيء واحـد، ولذلك فالذنب عند النابلسي هو "الموافقة للرب سبحانه" وهذا راجع بنص كلامـه إلى "تعين وجود العبد". ويشرح النابلسي "تعين الوجود" هذا بقوله:

فمن تعين عنده وجوده مع الله تعالى ظاهراً أو باطناً فقد أفحش، وبغى وقال ما لم يعلم (كـذا!!) وذلـك لأن التعينـات في الوجـود الحـادث إنمـا هي لبيـان امتيـاز المحضرات الصفاتية، لتنفصل مجملاتها، وتبين كمالاتهـا، وليسـت المغـايرة أمـراً مقصوراً، وإنما لزمت من ظهور حقائق بعض الصفات كــالغفور والحليم والمنتقم بوساطة تحقق الذنب.

قال الجنيد: ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها، وأنا مار ببعض الطرقــات منها:

وإن قلت: ما ذنبي إليــــك؟ أجبتني: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

(الفتح ص49)

فالذنب عند النابلسي بمقتضى كلامه السابق هو أن يظن العبد أن له وجوداً مستقلاً عن وجود الله!! ومن ظن ذلك فقد أفحش وبغى، وقال ما لم يعلم، واستدل على ذلك ببيت الشعر الذي سمعه الجنيد.

ويبالغ النابلسي أكثر من ذلك، فيزعم أن حال الذنب هو القرب من الله، وليس البعد منه. ولذلك يقول بالنص:

"فالمذنب في حال ذنبه أقرب إلى الله منه في حال طاعته"!!

(الفرق بين الصديق والزنديق):

وقد أوضح النابلسي هذه العقيدة الباطنية أكثر من ذلك عندما عقد فصلاً مطولاً قارن فيه بين الزنديق والصديق، وكانت خلاصة هذا الفصل أن الزنديق من يرى أن كفره وفسقه صادر منه فقط، وأنه مستقل بهذا الكفر. وأما الصديق فهو من يرى أن كل أفعال العباد صادرة من الله سبحانه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وأن المؤمن والكافر والفاسق والبار ما هم جميعاً إلا مظاهر مختلفة لحقيقة الرب الموجود وحده، واستدل على ذلك بقوله تعالى: {ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت} (الملك:3)، فالمؤمن عنده والكافر من خلق الله، ولا فرق بين هذا وذاك، ومن عرف هذه الحقيقة فهو الصديق، ومن جهلها وظن أن الكافر يصنع كفره، ويخلق فعله، ويستقل بأمر نفسه فهو الزنديق!!.

ويحسن أن أنقل كلامه في هذه المسألة بنصه حتى تتضح صورة هذه العقيدة الباطنية وضوحاً لا شك فيه. يقول الشيخ النابلسي:

"واعلم أن الأديان كلها التي في العالم بالنسبة إلى المتدينين بها من الخلق تنقسم إلى قسمين: دين واحد حق وهو الإسلام، وأديان جميعها باطلة، وهي ما عدا دين الإسلام.

وأما بالنسبة إلى الخالق سبحانه وتعالى فجميع الأديان الباطلة والصحيحة مخلوقة له تعالى، وهو خالقها، وقد قال تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون} (آل عمران:83)، أي انقادوا إليه طائعين في حق المؤمنين، ومكروهين، لأنه لا خالق غيره، في حق الكافرين.

فمن نظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين، وقال: إن جميع ذلك صواب وحق فهو الزنديق، ومن لم ينظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين، وإنما نظر إلى يد الله العليا التي فوق أيديهم جميعاً، واعتقد أن جميع ما يصدر منها صواب وحق فهو الصديق، والفرق بينهما دقيق. لا يدرك إلا بعناية من الله تعالى وتوفيقه.

فربما يظهر الصديق في حلية الزنديق، وربما يظهر الزنديق في حلية الصديق، وموقع النظر واحد، وهو الخلق. فمن نظر إلى الخلق وقال: إنهم كلهم على الصواب: فإما أن ينظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم، ويقول ذلك فهو الصديق. وإما أن ينظر إليهم من حيث ذواتهم ويقول ذلك فهو الزنديق.

وسبب ذلك أن من نظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم، فحكم بالتساوي بينهم، لأن الله تعالى يقول: {ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت} (الملك:3)، (انظر كيف قطع النابلسي هذا المقطع من الآية عن موضعه، فبدل معناه، وموضعه هكذا: {الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور} والتفاوت المقصود هنا هو التفاوت في خلق السماوات والأرض، لا في فعل البشر، لأن كل عاقل يعلم

أن فعل البشر متفاوت، فكم بين الإيمان والكفر من تفاوت!!) {والله خالق كل شيء} (الرعد:18)، فلا يكلف إلى الفرق والتمييز حينئذ، وهو صادق في حكمه بذلك التساوي، لأنه مأمور بالإيمان بذلك.

وأما من نظر إليهم من حيث ذواتهم، وما هم عليه من الأحوال، فحكمه بالتساوي بينهم خطأ محض وجهل. قال تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين* ما لكم كيف تحكمون} (القلم:35و36) وقال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} (ص:28). وإنما يكلف إلى الفرق والتمييز حينئذ، وهو كاذب في حكمه بالتساوي بينهم، قد يشتبه كلام الصديق بالزنديق، والقصد هو الفارق، ويعرف ذلك من كلام آخر في موضع آخر كقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (رضي الله عنه) من أبيات الفتوحات المكية:

عقد البرية في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ومراده جميع ما اعتقدوه من حيث صدور ذلك عن الصانع القديم، فإن جميع ذلك آثار دالة عليه تعالى، لا من حيث صدور ذلك عن المعتقدين لأنها من حيث هم دالة عليهم لا عليه، وعقيدة أهل الاختصاص فيها الغفلة عن الآثار، والنظر إلى المؤثر، يعلم ذلك في مواضع شتى في كلامه" (الفتح ص85-86).

وبهذا النقل المطول عن الشيخ النابلسي تتضح أمامنا الآن صورة العقيدة الباطنية التي سعى القوم إلى غرسها وبنائها، وأنها التحقق -في زعمهم- من أن الموجودات ما هي إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي الله، وأن الأفعال لا تتفاضل ولا تتناقض إلا بالنظر إلى الخلق، وأما بالنظر إلى الله الفاعل الحقيقي - في زعمهم- فإنما هي شيء واحد يدل على ذات واحدة.

وبهذه العقيدة هدموا جميع الأديان، وأبطلوا جميع الشرائع واستحلوا كل المحرمات، وهذا الذي أقرره هنا لا أقرره أيضاً استنباطاً واجتهاداً، وتحميلاً لألفاظ القوم ما لا تحتمل، فقد مر بك بيت الشعر المنسوب إلى ابن عربي:

عقد البرية في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وقد فسره ابن عربي بأن من اعتقد بأن هناك ديناً واحداً حقاً، وبقية الأديان باطلة فقد فاته خير كثير، لأنه آمن بجزء من الحقيقة، ولم ير الحقيقة كاملة، وهي أن كل هذه الأديان التي ظنها باطلة هي مرادة لله تبارك وتعالى، بل هو خالقها وبارئها.

وأصرح من هذا كله ما وصل إليه الشيخ النابلسي، وهو أن مقام الزهد المشهور في التصوف ما هو إلا مرحلة في الطريق الصوفي، وأما المرحلة النهائية في فهو ترك الزهد، والاستمتاع بالمقسوم على أتم وجه، وفي ذلك يقول النص:

"وأما بالنظر إلى غير الله تعالى فهو اشتغال الروحانية بما يرد عليها من أسئلة الأكوان السائرة للكون الحق، والستر هو الكفر، وأصحاب هذا الاشتغال المذكور هم الزهاد الذين يزهدون في الأشياء، فإنهم لولا ملاحظتهم للأشياء وادعاؤهم بثبوتها ما زهدوا فيها، فقد استتر الحق عنهم بزهدهم في الأشياء، فكفروا كفراً خفياً، ولو عقلوا لما زهدوا في شيء، لأن الذي ليس لهم عدم، فكيف يزهدون في العدم وهو غير مقدور، والذي لهم لا بد أن يصيبهم، فلو زهدوا فيه، لما أمكنهم وعاندوا الأقدار فهم مشغولون بزهدهم عن الله تعالى، فمتى يتفرغون له تعالى؟ ولله در القائل:

تجرد عن مقام الـزهد قلبي فأنت الحق وحدك في شهودي
أأزهد في سواك، وليس شيء أراه سواك يا سر الوجــود"

(الفتح الرباني ص134).

فانظر كيف نسب الكفر الخفي إلى الزهاد، لأنهم اشـتغلوا بزهـدهم في الأشـياء، لأن الذي ليس لهم عدم، أي أن ما قدر لهم لا بد أن يكون. ولذلك يقول: "والـذي لهم لا بد أن يصيبهم، فلو زهدوا فيه لما أمكنهم".

ولـذلك رآهم النابلسـي معارضـين للأقـدار، مشـغولين بزهـدهم عن اللـه تبـارك وتعالى..

أحب أن أكرر هنا أن النابلسي ليس رجلاً مغموراً جاهلاً، بل هو مقدم عند القـوم، مستشـهد بأقوالـه عنـد الجميـع وبعضـهم يعتـذر عن مثـل مقالاتـه هـذه بأنـه من الشطح، والشطح مغفور لهؤلاء، لأن ذلك من غلبة وجدهم وحبهم لمولاهم.

وأقول: إذا كان ثم شطح مغفور عند الله، معذور صاحبه، فهو أن تصـدر كلمـة أو جملة في غلبة حال كما يقولون. أما أن يؤلف رجل مئـتي كتـاب، كلهـا على هـذا النحو، وذلـك يسـتغرق آلاف السـاعات والأيـام، فكيـف يكـون التـأليف والتحقيـق شطحاً وسكراً؟ فافهم أخي المسلم هذه الحقيقة فإنها سهم قاتل لهذا الباطل.

وبعد هذا الاستطراد أعود إلى السياق الأصلي، وهو أن القوم في نهايـة مطـافهم وصلوا إلى هدم الأديان، والتسوية بين الكفـر والإيمـان، بـل وجعـل مرتبـة الزهـد التي هي بداية للطريق الصوفي، ومرحلة من مراحله شركاً خفياً باللـه، لأن ذلـك غيبة بالزهد عن الله تعالى.

ولعل ظاناً يظن أن هذه العقيدة الباطنية الـتي وصـل إليهـا كـانت عقيـدة نظريـة فقط، ولم يكن لها واقع عملي في حياة القوم، وهذا الظن ساذج ومريض، بل إن القوم قد مارسوا هذه العقيدة الباطنية ممارسة واقعية، وقـد جـاءت ممارسـتهم الواقعية لهذه العقيدة شـيئاً صـارخاً لا يكـاد العقـل يصـدق بـه. ولكن مـاذا نفعـل والحقيقة قد أصبحت أكبر من الخيال.

الفصل السابع

الحقيقة المحمدية في الفكر الصوفي

يسـتحيل علينـا أن نفهم مـا يريـده المتصـوفة بقـولهم (الحقيقـة المحمديـة) إلا بمعرفة عقيـدتهم في اللـه. فالنظريـة الصـوفية الفلسـفية قـد وصـلت في نهايـة القرن الثالث إلى القول بأن الله هـو هـذا الوجـود القـائم المتجـدد المتغـير فهـو السماوات والأرض والعرش والكرسي والملائكة والإنسان والحيوان والنبات وهـو الأزل والأبد -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وإن كانت عباراتهم تختلف أحياناً فمرة يقولون: هو الروح السـاري في الموجـودات ويشـبهون هـذا السـريان بأنـه كرائحة الورد في الـورد. ووجـود الـروح في الجسـم الحي. وتـارة يقولـون نفس وجود الموجودات هو وجود الله فليس عناك اثنان في الوجود خالق ومخلـوق بـل المخلوق هو عين الخالق، والخالق هو نفس المخلـوق، اعتقـد بـذلك ونشـره في الناس كبار الصـوفية من أهـل الزندقـة والإلحـاد كـابن عـربي، والحلاج، والجيلي، وابن سـبعين، ومن على شـاكلتهم، وهـؤلاء الصـوفية أنكـروا في كتبهم على من

يشهد بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القائم بنفسه المستوي على عرشه البائن من خلقه والذي هو معتقد المسلمين في ربهم سبحانه وتعالى. وقد كان هذا المعتقد أيضاً هو معتقد بعض من نسب إلى التصوف ولذلك شدد ابن عربي عليهم النكير أيضاً وخطّأهم ونسبهم إلى القصور وعدم الفهم (اقرأ كتاب ابن عربي التجليات الذي يزعم فيه أنه التقى برجال التصوف السابقين في البرزخ وناقشهم في عقائدهم هذه في التوحيد وبين لهم خطأهم وعرفهم في النهاية أن لا موجود إلا الله، وأن الله والعبد شيء واحد، وأنهم أقروا جميعاً بذلك وكل ذلك في كتاب التجليات). والمهم أن هؤلاء المتصوفة الذين نقلوا عقيدة وحدة الوجود عن الفلسفة الأفلاطونية واعتقدوها وجعلوها هي الحقيقة الصوفية وسر الأسرار وهي معتقد أهل الإسلام في زعمهم، نقلوا ما قاله هؤلاء الفلاسفة في نظرياتهم في بدء الخلق فقد قال الفلاسفة الأقدمون "إن أول شيء بدأ في الخلق هو الهباء (أي الذرات) وإن أول موجود وجد هو العقل الأول وسموه (العقل الفعال)، وأنه عن هذا العقل الأول نشأ العالم العلوي السماوات والكواكب ثم العالم السفلي.. الخ.

هذه النظرية الفلسفية القديمة جاء ابن عربي ونقلها هي نفسها إلى الفكر الصوفي ولكنه استبدل بدلاً من العقل الفعال عند الفلاسفة ما أسماه هو الحقيقة المحمدية فزعم أن أول الخلق كان هباء، -كلام الفلاسفة نفسه- وأن أول موجود هو "الحقيقة المحمدية" التي زعم ابن عربي أنها أول الموجودات وعلى حد تعبيره أول التعينات -أي أول عين تشكلت وتصورت من الذرات- يتطاول ابن عربي ويقول إن هذه (الحقيقة المحمدية) هي التي استوت على العرش الإلهي. فيجعل ما حدثنا الله سبحانه وتعالى به عن نفسه من أنه خالق الخلق، وأنه المستوي على العرش.. يلوي ابن عربي كل ذلك ويلبس على المسلمين وينقل لهم كلام الفلاسفة الملحدين في أسلوب جديد بغطاء إسلامي وآيات قرآنية فيقول إن ذات محمد هي أول ذات تكونت من الهباء وهي التي استوت على العرش الإلهي. ومن نور هذه الذات خلق الله الخلق جميعاً بعد ذلك فالملائكة والسماوات والأرض كل ذلك قد خلق من نور الذات الأولى وهي الذات المحمدية عند ابن عربي، والعقل الفعال في الفكر الفلسفي، وهكذا استطاع ابن عربي أن ينقل ترهات الفلاسفة وتخيلاتهم المريضة إلى دنيا المسلمين وعقائدهم بل جعل هذه العقيدة الإلحادية هي العقيدة الأساسية التي قام الفكر الصوفي كله بعد ذلك عليها، فإذا علمنا ماذا يعنيه المتصوفة المتفلسفون بوحدة الوجود وأن الله عندهم ليس ذاتاً يراها المؤمنون في الآخرة وتستوي على العرش، وإنما هو نفس الوجود بكل درجاته وتناقضاته، فالله عندهم هو عين وجود المَلَك والشيطان والإنس والجان، والحيوان والنبات، أقول إذا علمنا بعد ذلك ماذا يريد المتصوفة من قولهم بالحقيقة المحمدية المستوية على العرش وجعل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هو المخلوق الأول قبل الأكوان جميعاً وهو الذي استوى على العرش ومن نور النبي صلى الله عليه وسلم خلق الله جميع الأكوان بعد ذلك السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات. فأصبحت الحقيقة المحمدية -في زعمه- الصورة الكاملة المتجسدة للذات الإلهية التي لا ترى بذاتها، ولا تنفصل عن هذا الوجود.. فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ابن عربي ومشايخ التصوف الذين جاؤوا من بعده هو الله المتجلي على العرش. أو -قل- هو صورة الله المصغرة وهو الذي منه استمدت كل الموجودات وجوداتها وانفلقت عنه كل الأنوار وكل الأكوان وكل الموجودات.. وهو يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو البذرة الأولى لكل موجود فكأنه بذرة لشجرة كان منها بعد ذلك الساق والفروع والأوراق والثمار والأشواك،

فهكـذا بـدأ الوجـود بمحمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم ثم خلـق من نـوره العـرش والكرسي والسماوات والأرض وآدم وذريتـه وتفـرع الخلـق وتـدرج بعـد ذلـك من المخلوقات التي خلقت من نور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فـالموجودات كلها في عقيدة التصوف شيء واحد متفرع عن أصل واحد أو قل شجرة متفرعة عن بذرة واحدة. وإليك الآن نصوص عبارات هـؤلاء الملاحـدة الكـافرين في هـذه العقيدة الكفرية الزندقية:

قال القاشاني شارح فصوص الحكم لابن عربي: "إن محمـداً أول التعينـات الـتي عين به الذات الأحدية قبل كل تعين فظهر به ما لا نهاية من التعينات، فهو يشمل جمع التعينات. فهو واحد فرد في الوجود لا نظـير لـه: إذ لا يتعين من يسـاويه في المرتبة، وليس فوقه إلا الـذات الأحديـة المطلقـة المنزهـة عن كـل تعين وصـفة واسم ورسم وحدّ ونعت، فله الفردية المطلقة، ومن هذا يعلم أن الاسـم الأعظم لا يكون إلا له دون غيره من الأنبياء، ومن فرديته يعلم سر قولـه: (كنت نبيـاً وآدم بين الماء والطين) كونـه خـاتم النبـيين وأول الأولين وآخـر الآخـرين، ومن أوليتـه وجمعيته سر قوله: (أوتيت جوامع الكلم) وكونه أفضل الأنبياء فإنهم في التصـاعد وسعة الاستعداد والمرتبة ينتهون إلى التعين الأول ولا يبلغونـه، والتعين الأول هـو محمد الذي يرجع إليه جميع التعينات فهو الـبرزخ بين الـذات الأحديـة وبين سـائر الموجودات" (شرح القاشاني على الفصوص ص 266،267).

ومعنى أول التعينات أي أول موجود معين لـه ذات وجسـمه وقبلـه لم يكن هنـاك أي ذات لا عــرش ولا كرسـي ولا سـماوات ولا أرض. وقــول القاشــاني شــارح الفصوص (وليس فوقه إلا الذات الأحدية المطلقة المنزهـة عن كـل تعين وصـفة واسم ورسـم وحـد ونعت.. الخ) يعـني أنـه ليس فـوق مرتبـة الرسـول شـيء إلا الذات الإلهية التي لا توصف بأي صفة بتاتاً لأن ذات الله عنده مطلقة عن كل قيد -في زعمه- منزهة عن أن تكون ذاتاً معينة محدودة مثلاً كأن يقول لله وجه أو يـد أو سـاق، أو اسـتوى على العـرش، أو يـأتي يـوم القيامـة لأن الـذات الإلهيـة في العقيدة الصوفية هي المطلقة عن كل هذه القيود لأنها كل الموجـودات. ويشـرح ابن عربي نفسه عقيدته هذه بقوله: "بدء الخلق الهباء وأول موجود فيـه الحقيقـة المحمدية الرحمانية الموصـوفة بالاسـتواء على العـرش الرحمـاني وهـو العـرش الإلهي" (الفتوحات المكية ج1 ص152).

فالخلق في زعمه بدأ بالهباء أي الذرات وأول موجود وجد بـذات قائمـة محـدودة هي ذات الرسول التي سماها الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصـوفة بالاسـتواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي.

وجاء بعد ابن عربي من شرح هذه العقيدة واستفاض فيها، قال أحمـد بن مبـارك السلجماسـي في كتابــه الأبريــز فيمــا يرويــه عن شــيخه عبــدالعزيز الــدباغ: "(وسمعته) رضي الله عنه يقول في قوله وانفلقت الأنوار أن أول مـا خلـق اللـه تعـالى نـور سـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم ثم خلـق منـه القلم والحجب السبعين وملائكتها ثم خلق اللوح ثم قبل كمالـه وانعقـاده خلـق العـرش والأرواح والجنة والبرزخ أما العرش فإنه خلقه تعالى من نور وخلـق ذلـك النـور من النـور المكرم نور نبينا ومولانا محمد صلى الله عليـه وسـلم وخلقـه أي العـرش ياقوتـة عظيمة لا يقاس قدرها وعظمهـا وخلـق في وسـط هـذه الياقوتـة جـوهرة فصـار مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بياضها هو الياقوتة وصفارها هو الجوهرة ثم إن الله تعالى أمد تلك الجوهرة وسقاها بنوره صلى الله عليـه وسـلم فجعـل يخـرق الياقوتة ويسقي الجوهرة فسقاها مـرة ثم مـرة ثم مـرة إلى أن انتهى إلى سـبع

مرات فسالت الجوهرة بإذن الله تعالى فرجعت ماء ونـزلت إلى أسـفل الياقوتـة التي هي العرش ثم إن النور المكرم الذي خلق العرش إلى الجوهرة التي سالت ماء لم يرجع فخلق الله منه ملائكة ثمانية وهم حملة العرش فخلقهم من صـفائه وخلق من ثقله الريح وله قـوة وجهـد عظيم فأمرهـا تعـالى أن تـنزل تحت المـاء فسكنت تحته فحملته ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقوى في الماء فأراد المـاء أن يرجع إلى أصله ويجمـد فلم تدعـه الريـاح بـل جعلت تكسـر شـقوقه الـتي تجمـد وجعلت تلك الشقوق تتعفن ويدخلها الثقل والنتونة وشقوق تزيد على شـقوق ثم جعلت تكبر وتتسع وذهبت إلى جهات سبع وأماكن سبع فخلق الله منـه الأرضـين السبع ودخل الماء بينها والبحور وجعل الضباب يتصاعد من الماء لقوة جهد الريح ثم جعل يتراكم فخلق الله منـه السـماوات السـبع ثم جعلت الـريح تخـدم خدمـة عظيمة على عادتها أولاً وآخراً فجعلت النار تزيد في الهواء من قـوة حـرق الـريح للماء والهواء وكلما زندت نار أخذتها الملائكـة وذهبت بهـا إلى محـل جهنم اليـوم فـذلك أصـل جهنم فالشـقوق الـتي تكـونت منهـا الأرضـون تركوهـا على حالهـا والضباب التي تكونت منـه السـماوات تركـوه على حالـه والنـار الـتي زنـدت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر لأنهم لو تركوهـا لأكلت الشـقوق الـتي منهـا الأرضون السبع والضباب الذي منه السـماوات السـبع بـل وتأكـل المـاء وتشـربه بالكلية لقوة جهد الريح ثم إن الله تعالى خلـق ملائكـة الأرضـين من نـوره صـلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يعبدوه عليها وخلق ملائكة السماوات من نوره صـلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يعبـدوه عليهـا، وأمـا الأرواح والجنـة إلا مواضـع منهـا فإنها أيضاً خلقت من نور وخلق ذلك النور من نوره صلى الله عليـه وسـلم، وأمـا البرزخ فنصفه الأعلى من نوره صلى اللـه عليـه وسـلم فخـرج من هـذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السـماوات والأرضين كلها خلقت من نوره صـلى اللـه عليـه وسـلم بلا وسـاطة وأن العـرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نـوره صـلى اللـه عليـه وسـلم ثم بعد هذا فلهذه المخلوقات أيضاً سقي من نوره صلى الله عليـه وسـلم أمـا القلم فإنه سقي سبع مرات سقياً عظيماً وهو أعظم المخلوقـات بحيث إنـه لـو كشـف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وصارت رميماً وكـذا المـاء فإنـه سـقي سـبع مـرات ولكن ليس كسقي القلم وأما الحجب السبعون فإنها في سقي دائم وأما العرش فإنه سقي مرتين مرة في بدء خلقه ومرة عند تمام خلقه لتستمسـك ذاتـه وكـذا الجنة فإنها سقيت مرتين مرة في بدء خلقها ومـرة بعـد تمـام خلقهـا لتستمسـك ذاتها وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا سـائر المؤمـنين من الأمم السـابقة ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثماني مرات الأولى في عالم الأرواح حين خلـق اللـه نور الأرواح جملة فسقاه الثانية حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصور كـل روح سقاها بنوره صلى الله عليه وسلم. الثالثة يوم ألست بربكم فـإن كـل من أجـاب لله تعالى من أرواح المؤمـنين والأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام سـقي من نـوره صلى الله عليه وسلم لكن منهم من سقي كثيراً ومنهم من سـقي قليلاً فمن هنـا وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم. وأما أرواح الكفار فإنها كرهت شرب ذلك النور وامتنعت منه فلما رأت ما وقع للأرواح التي شـربت منـه من السـعادة الأبديـة والإرتقـآت السـرمدية نـدمت وطلبت سـقيا فسـقيت من الظلام والعياذ بالله. الرابعة عند تصـويره في بطن أمـه وتـركيب مفاصـله وشـق بصره فإن ذاته تسقى من النور الكريم لتلين مفاصله وتنفتح أسـماعها وأبصـارها ولولا ذلك ما لانت مفاصلها. الخامسة عند خروجه من بطن أمه فإنـه يسـقى من النور الكريم ليلهم الأكل من فمه ولولا ذلك ما أكل من فمه أبداً. السادسـة عنـد التقامه ثدي أمه في أول وضعه فإنه يسقى من النور الكريم أيضاً. السـابعة عنـد

نفخ الروح فيه فإنه لولا سقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الـروح أبـداً مـع ذلك فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها ولولا أمر الله لها ومعرفتها به ما قدر ملك على إدخالهـا بالـذات". انتهى. منـه بلفظـه (الأبريـز ص 224،225).

وهذا الهذيان الكامل، والتخريـف الكامـل شـرح لعقيـدة الصـوفية فيمـا يسـمونه بالحقيقة المحمدية، وأنها الذات الأولى التي انطلقت منها بعـد ذلـك كـل الـذوات والكائنات والموجودات.

ويستطرد أحمد مبارك شارحاً عقيدة الصوفية فيما يسـمونه بالحقيقـة المحمديـة فيقول أيضاً:

"(وسمعته) رضي الله عنه يقول مـرة أخـرى إن الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام وإن سقوا من نوره لم يشربوه بتمامه بل كل واحد يشرب منه مـا يناسـبه وكتب له فإن النور المكرم ذو ألوان كثيرة وأحـوال عديـدة وأقسـام كثـيرة فكـل واحـد شرب لوناً خاصاً ونوعاً خاصاً، قال رضي الله عنه: فسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم شرب من النور المكرم فحصل له مقام الغربة، وهو مقـام يحمـل صـاحبه على السياحة، وعدم القرار في موضع واحـد. وسـيدنا إبـراهيم صـلى اللـه عليـه وسلم شرب من النور المكرم فحصل له مقام الرحمة والتواضـع مـع المشـاهدة الكاملـة؛ فـتراه إذا تكلم مـع أحـد يخاطبـه بلين، ويكلمـه بتواضـع عظيم، فيظن المتكلم أنه يتواضع له وهو إنما يتواضـع للـه عـز وجـل لقـوة مشـاهدته. وسـيدنا موسى صلى الله عليه وسلم شرب من النور المكرم فحصل لـه مقـام مشـاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدر قدرها. وهكذا سائر الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام والله أعلم" (الأبريز ص226).

ويقول كذلك:

"(وسمعته) -أي شيخه عبدالعزيز الدباغ- رضي الله عنه يقول إني لم أزل أتعجب من الوالي الذي يقول إنه يملأ الكون وذلك لأن للكون باباً منه يقـع الـدخول إليـه وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولا يطيق مخلوق من المخلوقات أي يحمل نوره صلى الله عليه وسلم ومن عجز عن الباب فكيف يطيق غـيره اللهم إلا أن يكـون دخل من غير باب؛ يعني فيكون فتحه شيطانياً ظلمانياً، وهذا لا يملأ بيته فضلاً عن داره فضلاً عن شيء آخر. قال رضي الله عنه واعلم أن أنوار المكونات كلهـا من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها ومـا تحتهـا إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور النبي صلى الله عليـه وسـلم وأن مجمـوع نـوره صـلى الله عليه وسلم لو وضع على العرش لذاب ولو وضع على الحجب السبعين الـتي فوق العرش لتهافتت ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع عليه ذلـك النـور العظيم لتهافتت وتساقطت وإذا كان هذا شأن نوره صلى الله عليه وسـلم فكيـف يقـول من يقول إنه يملأ الكون، فأين تكون ذاته إذا بلغت المدينة المنـورة، وقـربت من القبر الشريف. أم كيف تكون إذا تصاعدت نحو البرزخ وقربت من الموضع الـذي فيه النور العظيم القائم بالروح الشريفة؟ أفتكون ذاته حاملـة لـه والمخلوقـات بجملتهـا عـاجزة عنـه أم يتخطى ذلـك الموضـع فلم يملأ الكـون؟ والغـرض أن الموضع المذكور آخذ من القبر الشريف إلى قبة البرزخ تحت العرش ولعلـه أراد بالكون ما بين السماء والأرض ما عدا موضع البرزخ الذي فيه نور المعظم فقلت ولعله أنه يملؤه من حيث النور أي يملؤه بنوره لا بذاته كالشـمس الـتي سـطعت على السماوات والأرض. فقال رضي الله عنه وما مراده إلا أنـه يملـؤه بنـوره ولا يريد أنه يملؤه بذاته. ولكن أين نوره من نور المصطفى صـلى اللـه عليـه وسـلم

فإن ذلك النور من النور المكرم بمنزلة الفتيلة في وسـط النهـار وقت الظهـيرة. وهل يصح أن يقال إن تلك الفتيلة كسفت نور الشمس؟ فقلت ونور الشمس من النور المكرم بمنزلة الفتيلة فما باله ملأ الأكوان؟ فقال رضـي اللـه عنـه: لم يملأ الأكوان بمعنى أن النور المكرم ذهب بسببه واضمحل فكيف ونـور الشـمس إنمـا هو من نور أرواح المؤمنين الذي هو من نوره صلى الله عليه وسلم وإنمـا سـبب ذلك أنا حجبنا عن مشاهدة النور المكرم كمـا حجبنـا عن مشـاهدة أنـوار الأوليـاء فلو كشف الحجاب لكانت له أنوار من النور المكرم بمنزلة الفتائل وسـط النهـار ولم يظهر للشمس ولا لغيرها نوراً إلا كما يظهر للفتائل وسط النهار" (الأبريز ص 230). أ.هـ

ويقول أيضاً في شرح قول الشاذلي (اللهم صـل على من منـه انشـقت الأسـرار وانفلقت الأنوار).

"* (الباب السابع في تفسـيره رضـي اللـه عنـه لبعض مـا أشـكل علينـا من كلام الأشياخ رضي الله عنهم) فمن ذلك أنه شرح لنا رضي الله عنه بعض الألفاظ من صلاة القطب الكامل الوارث الواصل مولانـا عبدالسـلام بن مشـيش رضـي اللـه عنه فسـمعته رضـي اللـه عنـه يقـول في شـرح قولـه (اللهم صـل على من منـه انشقت الأسرار) حاكياً عن سيد محمد بن عبدالكريم البصراوي رضـي اللـه عنـه أن الله تعالى لما أراد إخراج بركات الأرض وأسـرارها مثـل مـا فيهـا من العيـون والآبار والأنهار والأشجار والثمار والأزهـار أرسـل سـبعين ألـف ملـك إلى سـبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك ثلاث سـبعينات من الألـوف فـنزلوا يطوفـون في الأرض؛ فالسبعون الأولى يـذكرون اسـم النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ومرادنـا بالاسم الاسم العـالي مـا يـأتي في شـرح وتـنزلت علـوم آدم. والسـبعون الثانيـة يذكرون قربه صلى الله عليه وسلم من ربه عـز وجـل ومنزلتـه صـلى اللـه عليـه وسلم منه. والسبعون الثالثة تصلي عليه صلى الله عليه وسلم ونوره صـلى اللـه عليه وسلم مع الطوائف الثلاث فتكونت الكائنـات ببركـة ذكـر اسـمه صـلى اللـه عليه وسلم وحضوره بينها ومشاهدتها قربه صـلى اللـه عليـه وسـلم من ربـه عـز وجـل قـال وذكــروه على الأرض فاسـتقرت وعلى السـماوات فاسـتقلت وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله تعالى وعلى مواضع عينيـه ففتحت بـالأنوار الـتي فيهـا فهـذا معـنى قولـه منـه انشـقت الأسـرار. فقلت: فهـذا معـنى دلائـل الخيرات وبالاسـم الـذي وضـعته على الليـل فـأظلم وعلى النهـار فاسـتنار وعلى السماوات فاستقلت وعلى الأرض فاستقرت وعلى الجبال فرسـت وعلى البحـار ففجرت وعلى العيون فنبعت وعلى السحاب فـأمطرت. فقـال رضـي اللـه عنـه: نعم ذلك الاسم هو اسم نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فببركته تكـونت الكائنات والله أعلم. قلت وقد سبق كلام سيدي أحمد بن عبداللـه الغـوث رضـي الله عنه وقوله لمريده يا ولدي لولا نور سيدنا محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم مـا ظهر سر من أسرار الأرض؛ فلولا هو ما تفجـرت عين من العيـون ولا جـرى نهـر من الأنهار، وإن نوره صلى الله عليه وسلم يا ولدي يفوح في شـهر مـارس ثلاث مرات على سائر الحبوب فيقع لها الإثمار ببركته صلى الله عليه وسلم ولولا نوره صلى الله عليه وسلم ما أثمرت، ويا ولدي إن أقل الناس إيمانـاً من يـرى إيمانـه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه فأحرى غيره، وأن الذات تكـل أحيانـاً عن حمـل الإيمان فتريد أن ترميه فيفوح نور النبي صلى الله عليه وسلم عليها فيكون معيناً لها على حمل الإيمان فتستحيله وتستطيبه" (الأبريز ص 222). أهـ.

وصلاة ابن مشيش هذه يقول فيها:

"اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقـائق وتنزلت علـوم آدم بـأعجز الخلائـق، ولـه تضـاءلت الفهـوم فلم يدركـه سـابق ولا لاحق، فرياض الملكـوت بزهـر جمالـه مونقـة، ووحيـاض الجـبروت بفيض أنـواره متدفقة، ولا شيء إلا هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كمـا قيـل الموسـوط" (أذكار الطريقة الشاذلية).

والحـق أن هـذه العبـارات في وصـف (الحقيقـة المحمديـة) حسـب المفهـوم الصوفي الفلسفي، قد يختلف بعضها عن بعض قليلاً ولكنها جميعهـا مجمعـة على شيء واحد وهو أن الرسول هـو أول موجـود فمنهم من يقـول نـور الرسـول هـو أول موجود، ومنهم من يقول بل وأيضاً ذاته النورانية المستوية على العرش، وأن وجوده البشري في وقته إنما كان مجرد تعيين جديد، وتجسد جديد لذات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعض الصوفية أيضاً يجعـل عين الرسـول وذاتـه هي عين الله وذاته، وأنه ليس هناك حقيقـة إلهيـة غـير الحقيقـة المحمديـة ومن ذهب إلى ذلك عبدالكريم الجيلي وغيره، وبعضهم يفـرق بين الـذات الإلهيـة الـتي ليس لهـا تعين ذاتي ووجود منفصل عن الخلائق بل هي كل الموجودات بل هي في زعمهم الـروح الخفي السـاري في الموجـودات. وأن هـذه الـذات الإلهيـة خلقت النـبي محمداً أولاً قبل المخلوقات جميعاً ثم خلقت المخلوقـات بعـد ذلـك من نـور ذات الرسول، وأن ذات الرسول هي المستوية على العـرش الرحمـاني كمـا قـال ابن عربي. ومنهم ولا سيما المتأخرون يجعل ذات الرسـول والحقيقـة المحمديـة هي عين الحقيقة الإلهيـة، ويجعلـون الرسـول بصـورته البشـرية صـورة كاملـة أو هـو أكمل صورة للحقيقـة الإلهيـة. ويجعلـون كـذلك الصـورة البشـرية المحمديـة هي إحدى الصور الممكنة للرسول، ويعتقدون أنه يتشكل كثـيراً في أي صـورة يشـاء وهذا نص عبارة عبدالكريم الجيلي في ذلك قال في الباب الستين:

"اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليـه أفلاك الوجـود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجـود إلى أبـد الآبـدين، ثم لـه تنـوع في ملابس ويظهر في كنائس (الإنسان الكامل للجيلي)، فيسـمى بـه باعتبـار لبـاس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هـو لـه محمـد، وكنيتـه أبـو القاسم، ووصفه عبدالله، ولقبه شمس الدين، ثم لـه باعتبـار ملابس أخـر أسـام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمـان، فقـد اجتمعت بـه صـلى الله عليه وسلم وهو في صورة شيخي الشيخ شـرف الـدين اسـماعيل الجـبرتي، ولست أعلم أنه النبي صلى الله عليـه وسـلم، وكنت أعلم أنـه الشـيخ، وهـذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسـبعمائة، وسـر هـذا الأمـر تمكنه صلى الله عليه وسلم من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصـورة المحمدية التي كان عليها في حياته فإنـه يسـميه باسـمه، وإذا رآه في صـورة مـا من الصور وعلم أنه محمد، فلا يسميه تلـك الصـورة، ثم لا يوقـع ذلـك الاسـم إلا على الحقيقة المحمديـة. ألا تـراه صـلى اللـه عليـه وسـلم لمـا ظهـر في صـورة الشبلي رضي الله عنه قال الشبلي لتلميذه أشهد أني رسول اللـه وكـان التلميـذ صاحب كشف فعرفه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمـر منكـور، وهـو كمـا يرى النائم فلاناً في صورة فلان وأقل مراتب الكشف أن يسوغ به في اليقظة ما يسوغ به في النوم ولكن بين الكشف والنوم فرقـاً، وهـو أن الصـورة الـتي يـرى فيها محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم في النـوم لا يوقـع اسـمها في اليقظـة على الحقيقـة المحمديـة، لأن عـالم المثـال يقـع في التعبـير فيـه فيعبـر عن الحقيقـة المحمدية إلى حقيقة تلك الصورة في اليقظة، بخلاف الكشف فإنه إذا كشف لك عن الحقيقة المحمدية أنها متجلية في صورة من صـور الآدمـيين، فيلزمـك إيقـاع

اسم تلك الصورة على الحقيقة المحمدية، ويجب عليك أن تتأدب مع صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد صلى الله عليه وسلم، لما أعطاك الكشف أن محمداً متصور بتلك الصورة، فلا يجوز لك بعد شهود محمد صلى الله عليه وسلم فيها أن تعاملها بما كنت تعاملها به من قبل، ثم إياك أن تتوهم شيئاً في قولي من مذهب التناسخ، حاشا الله وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك مرادي، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم له من التمكين في التصور بكل صورة حتى يتجلى في هذه الصورة، وقد جرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلي شأنهم ويقيم مَيَلانَهُم فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم". أ.هـ

وأظن أنه قد وضح الآن حقيقة المعتقد الصوفي الفلسفي في النبي صلى الله عليه وسلم وحتى تتضح الصورة أمامنا أكثر من ذلك نجمل ما قدمناه فيما يلي، فنقول.. معتقد المتصوفة في النبي محمد صلى الله عليه وسلم على ثلاث درجات:

1- من يقولون بوحدة الوجود، وأن الله هو ذات الموجودات فيجعلون الرسول هو المخلوق الأول ومنه وعنه صدرت الموجودات جميعاً وهو الإله المستوي على العرش وهذا هو معتقد ابن عربي ومن على شاكلته.

2- من يقولون إن نور الرسول هو أول موجود فعلاً ومنه انشقت الأنوار وخلق الخلق جميعاً لكن لا يقولون بأن ذات الرسول مستوية على العرش.

3- من يقولون بأن نور الرسول أول موجود وهو أكرم الخلق ومن أجله خلق الله الكون جميعاً دون أن يصرحوا بأن العوالم قد خلقت من نوره، وإنما يقولون خلقت لأجله.

هذا وبالرغم من أن الصوفية على هذه الدرجات الثلاث في الاعتقاد في النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم متفقون ومجمعون تقريباً إلا ما شذ منهم أن ذات الرسول الذات التي منها تفيض كل العلوم وتنزل كل الرسالات، فالرسل لا ينزل عليهم الوحي إلا من الرسول ويعبرون عن ذلك بقولهم إن الرسل جميعاً والأولياء أيضاً لا تفيض ولا تنزل عليهم العلوم الإلهية إلا من ذات الرسول في الأزل والأبد أي قبل أن يوجد الرسول بذاته الترابية في الأرض، وبعد أن وجد ثم بعد أن خرجت ما يسمونه بذاته الترابية من هذه الأرض.. وهذا بالطبع هو حاصل اعتقادهم في أن الرسول أول موجود وأن العوالم من نوره، أو أن الكون خلق لأجله.

وكذلك مفهوم المتصوفة -المعتدلين- منهم يعتقدون أن الرسول يعلم الغيب كله، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماوات.

ولا شك أن المتصوفة الذين يعتقدون في مثل هذه العقائد في الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتأثروا فقط بالفلاسفة في نظريتهم في الخلق وقولهم بالهباء، والعقل الأول أو العقل الفعال.. بل إنهم تأثروا أيضاً بما قاله النصارى في عيسى، ولا شك أن نظرية النصرانية في المسيح متأثرة بقول الفلاسفة أيضاً في العقل الفعال. ولقد استطاع المتصوفة نقل هذه النظرية بالرغم من غموضها الفلسفي، وصعوبة التدليل عليها بدليل منطقي يقبله العقل. وبمجافاة هذه النظرية عن عقيدة الإسلام الواضحة السهلة، أقول بالرغم من كل ذلك فإن المتصوفة استطاعوا أن يجعلوا هذه العقيدة هي عقيدة العوام والكثرة من المسلمين وذلك بصياغتها لعبارات سهلة، وفي شعر سلس يجري على الألسنة

سريعاً كقولهم مثلاً: (لولاك ما خلقت الأفلاك)!!.. وكنت مرة أخطب في الحرم النبوي في نحو سنة 1381هـ الموافقة 1960م تقريباً مبيناً العقيدة الواجبة في الرسول صلى الله عليه وسلم فقام إلي أحد الحجاج من كبار السن وقال لي: أليس يقول الله تعالى (لولاك ما خلقت الأفلاك) فقلت: له ليست هذه بآية من القرآن، ولا بحديث أيضاً واعتقادها شرك بالله!! فانظر كيف جرى هذا المعتقد على ألسنة الناس بكلام مسجوع يظنه العامي قرآناً وما هو بقرآن.

فكيف إذا كان شعراً من أمثال شعر البوصيري الذي سارت به الركبان كقوله:

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

وهذا البيت يعبر عن معتقد الصوفية في أن علم الرسل كله من الرسول محمد مأخوذ من ذاته الأولى قبل أن تخلق ذاته الترابية كما يقولون. والبيت الأول يجعل الدنيا والآخرة نفحة من نفحات الرسول، وما سطره القلم ووعاه اللوح المحفوظ جزء وبعض من علوم الرسول صلى الله عليه وسلم..

وكذلك وصفوا مثل هذه العقيدة في أذكار تقرأ صباحاً ومساءً لا أقول عشرات المرات بل يوجبون قراءتها أحياناً على مريديهم آلاف المرات؛ نحو قولهم في صلاة ابن مشيش :

"اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتفعت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط صلاة تليق بك إليه كما هو أهله اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية وانشلني من أوحال التوحيد". أ.هـ

وكذلك لقولهم في مناجاة الرسول: "يا أول خلق الله يا نور عرش الله" ومثل هذه الكلمات كان وما زال المؤذنون في أماكن شتى من العالم الإسلامي يقولونها في المآذن قبل الآذان وبخاصة آذان الفجر.. فالعامي يفهم معنى عاماً من هذه الكلمات وأما الصوفي المتمرس القارئ أو المريد المترقي في سلم التصوف فإنه يظل يأخذ من هذه العقيدة حتى يتشربها أخيراً وتنطبعفي نفسه ويظن -حقاً- أن الرسول هو أول موجود أو متعين ومنه انفلقت أنوار الوجود فكان العرش والكرسي والسماوات والأرض الملائكة والجن والإنس وأن الله ما خلق هذا الخلق إلا من أجله وحتى يستوي هو أي الرسول على عرش الكون ويكون كما قال ابن عربي قبة الكون..!!

ولو أن المسلمين يقرأون القرآن ويفهمونه، ويتعلمون أحاديث الرسول ويدرسون سيرته كما استشرت وانتشرت مثل هذه العقيدة الباطلة في أوساطهم لنجحوا في البعد عن البدع ولكن الصوفية كانوا قد أحكموا الطوق على المسلمين فزعموا أن القرآن كله أسرار وأن أسراره في الفاتحة، وأن سر الفاتحة في البسملة وسر البسملة في الباء وسر الباء في النقطة!!!

ومن هذا الذي يستطيع أن يفتح نقطة الباء حتى يعلم أسرار القرآن، وكذلك جعلوا قراءة الحديث تبركاً فقط دون محاولة فهم لأن من حاول الفهم لا بد أن يكون مجتهداً ولا اجتهاد بعد الأئمة الأربعة. وجعل المتصوفة قراءة السير لا تعدو أن تكون ترديداً لمنظومات ملئوها بالكفر والشرك والغلو والتغزل في عيون الرسول الكحلية، وخدوده الوردية، وقوامه الممشوق.. هكذا والله.. وأما سيرته وجهاده وحياته ومعاناته صلى الله عليه وسلم فإنهم شغلوا الناس عن كل ذلك بهذه الترهات والخرافات، ولذلك ضاعت حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم من أوساط عامة المسلمين إلا من رحم الله، وحل مكانها هذه العقيدة الصوفية الكفرية.

المعتقد الواجب في الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الرسل:

من المعلوم أن الإيمان بالرسل من أركان الإيمان الستة كما جاء في حديث جبريل لما سأل النبي عن الإيمان قال: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى] (متفق عليه)، وقد وصف الله الرسل في القرآن بأنهم بشر اختارهم لدعوة الناس إليه وأنهم كانوا يأكلون الطعام وكانوا يعالجون المعاش والسعي في الأرض كبقية البشر، ولم يكن أحد منهم يعلم من الغيب، أو يتصرف في الأكوان كما يشاء، أو يأتيه الطعام من الغيب وقتما يشاء إلا آية واحدة جعلها الله لعبده عيسى بعد تهديد ووعيد من الله بأن من يكفر بعد تنزل هذه الآية فإنه يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين كما قال تعالى: {إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين* قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين* قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين* قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين} (المائدة:112-115).

وهكذا لم تكن هذه الآية والكرامة إلا علامة على الرسالة وصدق عيسى فيما دعا قومه إليه وأنه عبدالله ورسوله، لقد كانت سيرة الرسل وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم مبينة أنهم بشر قاسوا ما قاساه البشر من الآلام والأسقام والأوجاع والفتن والبلايا وتضرعوا إلى ربهم ودعوه، وخافوه، وأحبوه كذلك وطلبوا نصرته وعونه سبحانه وتعالى، وكان خاتمهم وخيرهم محمداً صلى الله عليه وسلم أكمل الرسل في تحقيق عبودية الله سبحانه وتعالى على نفسه فقد قام من الليل حتى تفطرت قدماه، وأوذي بالله أشد الأذى، وأخرجه كفار مكة منها، وعاداه المنافقون في المدينة عداء شديداً فسبوه أقذع السباب، ورموا زوجته بأشنع فرية، وقال قائلهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل..!!.. وعاش صلى الله عليه وسلم على الكفاف، وقالت عائشة رضي الله عنها "كان يأتي الهلال والهلال والهلال ثلاثة أهلة في شهرين ولا يوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار..!! قيل لها فما كان طعامكم؟ قالت الأسودان التمر والماء" (رواه البخاري)، وربط رسول الله الحجر بل الحجرين على بطنه.. وجاع مع أصحابه وصبر معهم.. وكان في المرض يتألم ويوعك كما يوعك رجلان من المسلمين.. وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تخفى فأموره أغلبها من المعلوم من الدين ضرورة.. وأشهر ذلك أنه لم يطلب من أحد أن يعظمه أو يعطيه حقاً لله فيسجد له أو يركع له، أو يقوم على رأسه أو يقوم لمقدمه كما قال أنس "كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحبونه وكانوا لا

يقومون لـه لمـا يعلمـون من شـدة كراهتـه لـذلك" ومعلـوم كـذلك أن الرسـل لا يعلمون الغيب كما قال تعالى: {قل لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيـان يبعثـون} (اقـرأ الفصـل الخـاص بـذلك في بـاب الكشـف الصوفي)، وكذلك لم تكن كل دعواتهم تستجاب لهم فقد دعا نوح وشفع في ابنـه قائلاً: {رب إن ابني من أهلي} فقيل له {يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غـير صالح فلا تسألن ما ليس لك بـه علم إني أعظـك أن تكـون من الجـاهلين} ودعـا إبراهيم لأبيه فلم يستجب له، وجاء في صحيح البخاري أن إبـراهيم يلقى أبـاه آزر يوم القيامة وقـد سـربل بسـربال من قطـران وقـد علت وجـه آزر غـبرة وقـترة فيقول له إبراهيم: يا أبت ألم أقل لـك لا تعصـني. فيقـول لـه آزر: يـا بـني الآن لا أعصيك. فينادي إبراهيم ربه قائلاً: ربي لقد وعدتني ألا تخـزني يـوم يبعثـون، وأي خزي أكبر من أبي الأبعد، فيقال له يا إبراهيم إني حرمت الجنـة على الكـافرين.. وانظر تحت قدميك فينظر تحت قدميه فإذا هو بزيخ متلطخ بالـدماء -والـزيخ هـو ذكر الضبع- فيؤخذ من قوائمه ويلقى في النار، وكـذلك امـرأة نـوح وامـرأة لـوط كانتا كافرتين ولم ينفعهما القرب من الأنبياء، وأما النبي محمـد صـلى اللـه عليـه وسلم فقد شفع في أبي طالب فلم يستجب الله له إلا بأن أخرجه من مكانه في النار إلى مكان آخر في ضحضاح من النار يغلي منه رأسه، وقال أيضاً صـلى اللـه عليه وسلم [استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي، واستأذنت أن أستغفر لهـا فلم يأذن لي] وقال صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمـة [لا أغـني عنـك من اللـه شيئاً سليني من مالي ما شئت]..!!

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم [لن يدخل أحدكم الجنة بعمله] قـالوا ولا أنت يـا رسول الله. قـال [ولا أنـا مـا لم يتغمـدني اللـه برحمـة منـه وفضـل] وكـل هـذه الأحاديث مما أخرجه أهل الصحيحين ومـا تضـمنته هـو من المعلـوم في الإسـلام ضـرورة فـإن الآيـات القرآنيـة الـتي وصـفت حـال الرسـل وافتقـارهم إلى ربهم، ومعاتبته إياهم على مجرد فعلهم لخلاف الأولى كثير، كقوله لرسوله محمد صـلى الله عليه وسلم {ولولا أن ثبتناك لقـد كـدت تـركن إليهم شـيئاً قليلاً* إذاً لأذقنـاك ضـعف الحيـاة وضـعف الممـات ثم لا تجـد لـك علينـا نصـيراً} (الإسـراء:73-75) وكـذلك قولـه تعـالى: {ولـولا فضـل اللـه عليـك ورحمتـه لهمت طائفـة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل اللـه عليـك الكتـاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليـك عظيمـاً} (النسـاء:113) وكذلك قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم} وقوله تعالى: {عبس وتـولى* أن جـاءه الأعمى} وقولـه تعـالى: {وتخفي في نفسـك مـا اللـه مبديـه وتخشـى الناس والله أحق أن تخشاه}.

وأما الآيات التي يبين الله تعالى فيها فضله على عبده ورسوله محمد صـلى اللـه عليه وسلم فكثيرة جـداً يصـعب حصـرها وسـردها في هـذه المقـام ومنهـا قولـه تعالى: {ألم يجدك يتيماً فآوى* ووجدك ضالاً فهدى} فكيف يقول تعالى {ووجدك ضالاً فهدى} وتقول صوفية وجد محمد قبل الخلق جميعاً ومن نوره استمد جميـع الأنبياء علومهم!؟ ويقول تعالى أيضاً: {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمـان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا} (الشورى).

والمهم أن من قرأ القرآن وعلم شيئاً من الإسـلام ودرس سـيرة الرسـول صـلى الله عليه وسلم حصل العلم الضروري الذي لا يدافع بأن محمداً صلى اللـه عليـه وسلم هو عبدالله ورسوله وأنه وجد يوم وجد على الأرض بشراً كالبشر لا علم له بشيء مما كان في الملأ الأعلى كما قال تعالى: {قل هـو نبـؤا عظيم* أنتم عنـه معرضون* ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون* إن يوحى إلي إلا أنمـا

أنـا نـذير مـبين* إذ قـال ربـك للملائكـة إني خـالق بشـراً من طين* فـإذا سـويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} (ص:67 وما بعدها)، فالرسـول أمـره الله أن يقول هنا: {ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون} والملأ الأعلى هم الملائكة عندما أمرهم الله بالسجود لآدم فسـجدوا إلا إبليس فكـان بينـه وبين الرب سبحانه وتعالى ما كان مما قصه على رسوله محمد صلى الله عليه وسـلم ومما لم يكن عن الرسول قبل بعثته وقبل نزول هذا الوحي أو في علم منه.. بـل إن رسول الله عندما جاءه جبريل بالوحي ظنه شيطاناً وجاء أهله ترتعد فرائصـه، وهـو يقـول زملـوني وقـال للسـيدة خديجـة رضـي اللـه عنهـا: لقـد خشـيت على نفسي!!

وظن أن الذي أتاه في غار حراء شيطان من الذين ينزلون على الكهان والسحرة فلو كان جبريل مخلوقاً من نـور الرسـول كمـا زعمت المتصـوفة لقـال الرسـول لجبريل عندما نزل إليه أهلاً بمن خلقـه اللـه من نـوري. ولم يكن شـأن الرسـول أمام جبريل كما كان حيث يأمره بأن يقـرأ مـا في يـده من آيـات مـا أنـا بقـارئ.. فيضمه جبريل حتى تكاد أنفاس الرسول تنقطع ثم يرسله ويقـول لـه مـرة ثانيـة اقرأ ويفعل ذلك ثلاث مرات، وما كان ذلك إلا لإشـعار الرسـول أن مـا يـراه ومـا يسمعه ليس خيالاً ولا رؤيا منامية وإنما هو حق.. أقول لا شك أن من قـرأ سـيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم شيئاً يسيراً من عقيدة الإسلام استحال عليه الإيمان بما آمن به الصوفية في شأن الرسـول، ولكن هـؤلاء لأنهم تركـوا الكتـاب والسـنة وراءهم ظهريـاً وتركـوا العقـول أيضـاً وراءهم وألقوهـا واتبعـوا مـا كتبـه شياطين الإنس من الفلاسفة مما توهموه بعقـولهم في قـولهم بالهبـاء والهيـولي والعقل الأول، والعلة، وواجب الوجود الذي لا يوصف بصفة ثبوتيـة وإنمـا يوصـف بالصفة وضدها.. كالوجود والعدم، والحياة والموت، والفـوق والتحت، وغـير ذلـك من هذه الأوهام والخرافات، والمتناقضات.

أقول: عنـدما آمن فلاسـفة التصـوف بهـذه الخرافـات الإغريقيـة وتركـوا الإسـلام والعقل فإنهم خرجوا على الناس بهـذه الخرافـات وأدخلـوا في الـدين الإسـلامي هذه الخزعبلات. والعجيب أنهم استطاعوا بفنهم الشـيطاني أن يجعلـوا عقيـدتهم هذه ومـا سـموه (بالحقيقـة المحمديـة) عقيـدة العامـة والـدهماء من المسـلمين الذين أحسنوا الظن برجال التصوف الذين لبسوا لهم مسـوح الرهبـان وأضـمروا لهم عقائد الشيطان، وخرجوا على الناس بجلود الضأن، وقـد أخفـوا عنهم قلـوب الذئاب..

وقد تـذرع المتصـوفة لنشـر عقيـدتهم فيمـا سـموه (بالحقيقـة المحمديـة) أيضـاً بحديث موضـوع وهـو (كنت أول النبـيين في الخلـق وآخـرهم في البعث) وذكـره الشـوكاني في الأحـاديث الموضـوعة ص326، وحـديث آخـر (كنت نبيـاً وآدم بين الروح والجسد) ذكرها الحاكم وقال الصنعاني هو موضـوع وكـذا قـال ابن تيميـة. وعلى فرض صحة هذا الحديث الأخير فإنه لا شاهد فيه على عقائد الصوفية وإنما يعني أن الرسول قد قدر الله كونه نبياً عندما خلق آدم. ولا شك أن الله قـد قـدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كمـا جـاء في الحديث [إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم وأمره أن يكتب كـل شـيء يكـون] (رواه أبـو يعلى والـبيهقي وصـححه الألبـاني وأخرجـه في الصـحيحة بـرقم133). وبهذا يتضح لك أن ما ذكره الصوفية في عقائدهم عن (الحقيقة المحمدية) ما هو إلا هذيان وأقوال فلاسفة وكهان، وليس هو في شيء من دين الإسلام.

وصلى الله على عبده محمد إمام أهل الإيمان .

الفصل الثامن

الخضر عليه السلام في الفكر الصوفي

قصة الخضر عليه السلام التي وردت في القرآن في سـورة الكهـف، ووردت في السنة في البخاري وغيره، حرّف المتصوفة معانيها وأهـدافها ومراميهـا وجعلوهـا عموداً من أعمدة العقيدة الصوفية، فقـد جعلـوا هـذه القصـة دليلاً على أن هنـاك ظاهراً شرعياً، وحقيقة صوفية تخالف الظاهر، وجعلوا إنكار علماء الشـريعة على علماء الحقيقة أمراً مستغرباً (فقد أنكر موسى من قبـل على الخضـر وكـان كـل منها على شريعة خاصة) وجعل الصوفية الخضر مصدراً للوحي والإلهام والعقائــد والتشريع. ونسبوا طائفة كبـيرة من علـومهم الـتي ابتـدعوها إلى الخضـر، وليس منهم صغير أو كبير دخل في طريقهم إلا ادعى لقيا الخضر والأخذ عنه.

ولما كان لهذه القصة هذا الدور العظيم في الفكر الصوفي فقـد أحببت أن أجلي هذا الأمر وأوقف الإخوة القراء على حقيقة الأمر ولنبـدأ أولاً بالقصـة في القـرآن والسنة:

الخضر في القرآن الكريم:

قال تعالى: {وإذ قال موسى لفتاه لا أبـرح حـتى أبلـغ مجمـع البحـرين أو أمضـي حقباً* فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهمـا فاتخـذ سـبيله في البحـر سـرباً* فلمـا جاوزا قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سـفرنا هـذا نصـباً* قـال أرأيت إذ أوينـا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سـبيله في البحر عجباً* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً* فوجـدا عبـداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً* قـال لـه موسـى هـل أتبعـك على أن تعلمن مما علمت رشداً* قال إنك لن تستطيع معي صبراً* وكيـف تصـبر على ما لم تحط به خبراً* قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لـك أمـراً* قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكـراً* فانطلقـا حـتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقـد جئت شـيئاً إمـراً* قـال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً* قال لا تؤاخذني بما نسـيت ولا ترهقـني من أمري عسراً* فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغـير نفس لقد جئت شـيئاً نكـراً* قـال ألم أقـل لـك إنـك لن تسـتطيع معي صـبراً* قـال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني ذكـراً* فانطلقـا حـتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخـذت عليـه أجـراً* قـال هـذا فـراق بيـني وبينـك سـأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً* أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحـر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخـذ كـل سـفينة غصـباً* وأمـا الغلام فكـان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفـراً* فأردنـا أن يبـدلهما ربهمـا خـيراً منه زكاة وأقرب رحماً* وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحتـه كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً}.

الخضر في السنة:

وقبل أن نتعرض لبعض ما جاء في هذه الآيات الكريمة بالشرح والتفسير نستعرض ما رواه الإمام البخاري رضي الله عنه في شأن هذه القصة. قال الإمام البخاري:

باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام:

1- حدثنا عمرو بن محمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثني أبي عن صالح عن أبي شهاب أن عبيدالله بن عبدالله أخبره]عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيّه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى بل عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية، وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً فوجداً خضراً، فكان من شأنهم الذي قص الله في كتابه[.

2- حدثنا علي بن عبدالله حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال أخبرني سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بن إسرائيل، إنما هو موسى آخر. فقال كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال أنا. فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال أي رب ومن لي به؟ -وربما قال سفيان؟ أي ربّ وكيف لي به؟ -قال تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثم وربما قال: فهو ثمه- وأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما، فرقد موسى واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق -فقال هكذا مثل الطاق- فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا من الغد قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، فكان للحوت سرباً ولهما عجباً، قال له موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً -رجعا يقصان آثارهما- حتى انتهيا إلى الصخر، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلم موسى فرد عليه فقال: وأنّى بأرضك السلام، قال أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمك الله لا أعلمه. قال هل أتبعك؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً -إلى قوله- إمراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول. فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذا أخذ الفأس فنزع لوحاً، قال فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدّوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها

لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صــبراً؟ قـال لا تؤاخـذني بمـا نسـيت ولا ترهقـني من أمـري عسـراً. فكـانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخـذ الخضـر برأسه فقلعه بيده هكذا -وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطـف شـيئاً- فقـال له موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شـيئاً نكـراً. قـال ألم أقـل لـك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: إن سـألتك عن شـيء بعـدها فلا تصـاحبني قـد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيـا أهـل قريـة اسـتطعما أهلهـا فـأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض مائلاً -أومأ بيده هكذا، وأشار سـفيان كأنه يمسح شيئاً إلى فوق، فلم أسمع سـفيان يـذكر (مـائلاً) إلا مـرة- قـال: قـوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، عمدت إلى حائطهم، لـو شـئت لاتخـذت عليـه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما تستطع عليه صبراً، قال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم :]وددنـا لـو أن موسـى كـان صـبر فقص اللـه علينـا من خبرهما]. قال سفيان: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [يـرحم اللـه موسـى لـو كان صبر يقص علينا من أمرهما]. وقرأ ابن عباس: أمامهم ملك يأخذ كل سـفينة صالحة غصباً. وأما الغلام فكان كافراً وكـان أبـواه مؤمـنين. ثم قـال لي سـفيان: سمعته منه مـرتين وحفظتـه منـه. قيـل لسـفيان قبـل أن تسـمعه عن عمـرو أو تحفظه من إنسان؟ فقال ممن أتحفظـه؟ ورواه أحـد عن عمـرو غـيري؟ سـمعته منه مرتين أو ثلاثاً وحفظته منه.

3- حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني أخبرنا ابن المبـارك عن معمـر عن همـام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليـه وسـلم قـال: [إنمـا سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضـراء] قـال الحمـوي قـال محمـد بن يوسـف بن مطـر الفربـري حـدثنا علي بن خشـرم عن سفيان بطوله..

فقه القصة كما وردت في الكتاب والسنة:

ومن هـذا العـرض الكامـل لنصـوص القصـة في القـرآن وفي صـحيح البخـاري نستخلص الفوائد التالية:

1- أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدب نبيه موسى صلى الله عليه وسلم الــذي قال جواباً عن سؤال (لا أعلم على الأرض أعلم مني)!! إن كان يجب أن يرد علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فأراه الله جل وعلا أن هناك عبداً لا يعلمـه موسـى هو على علم من علم الله لا يعلمه موسـى وكـان من أجـل ذلـك هـذا اللقـاء بين موسى والخضر.

2- أن الخضر بعد أن تم لقاؤه بموسى أخبره أن علم الخضر وعلم موسى بجوار علم الله سبحانه لا شيء وأنهما لم ينقصا من علم اللـه إلا كمـا شـرب العصـفور من ماء النهر.

3- أن الشريعة التي كان عليها الخضر لم تكن في حقيقتها مخالفة للشريعة التي عليها موسى، وإنما كان يخفى على موسى فقـط الخلفيـة الـتي من أجلهـا فعـل الخضر ما فعله، ولذلك فإن الخضر عندما بين لموسى الأسباب الـتي دفعتـه إلى خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجـدار لم يسـتنكر موسـى شـيئاً من ذلـك لأن هذا كله سائغ في الشريعة، فإتلاف بعض المال لاسـتنقاذ بعضـه جـائز فلـو وكلت مثلاً رجلاً على عمل لـك ثم جـاء لصـوص أو ظلمـه قطـاع طريـق ليسـتولوا على المال كلـه ولم يجـد هـذا الوكيـل وسـيلة لـدفعهم إلا بـأن يـدفع لهم بعض المـال

ويتركوا بعضه لما كان ملوماً شرعاً، ولا يلام ممن وكله بل يستحسن فعله، وما فعله الخضر بالنسبة إلى السفينة لا يعدو ذلك فهو إنما أفسد السفينة فساداً جزئياً لتظهر لأعوان ذلك الملك الظالم أنها غير صالحة فيتركوها وبذلك تسلم من الغصب، ولا شك أن ما فعله الخضر في حقيقته إحسان لأصحاب السفينة لأن الله أطلعه على شيء من المستقبل في أن ذلك الملك الظالم سيصادر السفن لأمر ما كما هو حال كثير من الرؤساء والملوك الظلمة يصادرون وسائل النقل أحياناً إما لمصالحهم أو لمصلحة عامة..

فما فعله الخضر بالنسبة إلى السفينة موافق للشرع الإلهي تماماً في كل دين وملة وليس مخالفاً للتشريع، وإنكار موسى في أول الأمر ناشئ من أنه لم يعرف الخلفية الغيبية التي كان الله قد أطلع عليها الخضر بوحي من عنده.

وأما قتل الغلام فهو كذلك سائغ في الشريعة إذا كان هذا الغلام سيكون ظالماً لوالديه، مجبراً لهما على الكفر وكان هذا مما علمه الله مستقبلاً، وأطلع عليه الخضر، فكان قتله أيضاً سائغاً، وقد جاءت الشريعة بقتل الصائل المعتدي. حقاً إن الشريعة لا تأمر بقتل الصائل إلا إذا باشر العدوان، والطفل هنا لم يباشر العدوان بعد، ولكن القتل هنا بأمر الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما سيكون، وقد كان هذا منه سبحانه وتعالى رحمة بعبدين من عباده صالحين أراد الله جل وعلا أن لا يتعرضا لفتنة هذا الولد العاق فيتألما ألمين، الألم الأول أنه ولدهما وعقوق الأولاد شديد على قلوب الآباء، والثاني أنهما قد يبلغان الكفر ويتعبان في التمسك بالإيمان وهذا عذاب آخر، فجمع الله سبحانه وتعالى لهما عذاباً واحداً فقط وهو فقد الولد، وفيه خير لهما ولا شك لأن صبرهما، أيضاً على فقده فيه خير لهما. فلما علم الله ذلك، وأطلع الخضر عليه، ونفذ هذا بأمر الله كان ذلك كله موافقاً للشريعة التي عليها موسى وعليها محمد صلى الله عليه وسلم وعليها سائر الأنبياء.

ولذلك لما قيل لابن عباس على هذه الحادثة: أيجوز أن نقتل الأولاد؟.. قال: إذا علمت منهم ما علم الخضر فافعل.. أي إن ذلك سائغ في الشريعة ولكن أين من يطلعه الله على الغيب كما أطلع الخضر عليه السلام.

وأما مسألة بناء جدار لقوم بخلاء لم يبذلوا القرى (بكسر القاف) والضيافة الواجبة، فإن ذلك من باب مقابلة الإساءة بالإحسان، وهذا خلق من أخلاق الشريعة الإسلامية والمسيحية واليهودية ففي القرآن {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} وفي الإنجيل (أحسنوا إلى من أساء إليكم وباركوا لأعينكم)، وقال تعالى فيما أوحاه لموسى {وقولوا للناس حسناً}، وما فعله الخضر هو من باب الإحسان إلى قوم قدموا الإساءة.

ثم إن إحسانه لهذين الغلامين لم يتأت منهما إساءة وكان أبوهما رجلاً صالحاً وهم في قرية ظالمة بخيلة ولو هدم جدار بيتهم لانكشف كنزهم ولاستولى عليه هؤلاء القوم البخلاء، فلا شك أن ما فعله الخضر من بناء الجدار هو عين ما تأمر به كل شرائع الأنبياء التي أمرت بالفضل والإحسان، ورعاية اليتامى وحفظ حقوقهم..

فأي شيء يستغرب مما فعله الخضر، وأي حقيقة اطلع عليها الخضر تخالف ظاهر شريعة كان عليها موسى بل ما فعله الخضر موافق تماماً لشريعة موسى ولشريعة عيسى ولشريعة محمد ولكل شرائع الله المنزلة، ولم يقل الخضر أو

يفعل شيئاً يخالف ما كان عليه الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما فقط أطلعه اللـه على بعض أسرار المقادير ففعل ما فعل من الحق الـذي لا تنكـره الشـرائع بنـاء على هذه الأخبار والأنباء التي أطلعه الله عليها. وباختصار لم يفعل الخضـر شـيئاً مخالفاً لشريعة موسى فافهم هذا جيداً وتمسك به.

4- وجود الخضر عليه السلام على دين وشـريعة غـير شـريعة موسـى كـان أمـراً سائغاً وسنة من سنن الله قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لأن النبي كـان يبعث إلى قومه خاصة، ولذلك كان موسى رسـولاً إلى بـني إسـرائيل فقـط، ولم يكن رسولاً للعالمين، ولـذلك لمـا سـلم موسـى عليـه السـلام على الخضـر قـال الخضر: وأنّى بأرضك السلام. قال له موسى أنا موسى. قال الخضر: موسى بني إسرائيل!؟ قال: نعم.. أي أنت مبعوث إلى بـني إسـرائيل ومنهم، ولـذلك لم تكن شريعة موسى لازمة للخضر ولجميع الناس في زمانه، وأما بعد بعثة محمد صـلى الله عليه وسلم فإنه لا يجوز شرعاً أن يكون هناك من هو خارج عن شريعته، لأن الرسول صلى الله عليه وسـلم رسـول للعـالمين، فلا يسـع الخضـر ولا غـيره أن يتخلف عن الإيمان بـه واتباعـه ولـذلك فلا وجـود بتاتـاً للخضـر وأمثالـه بعـد بعثـة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

5- لا شك أن ما فعله الخضـر فعلـه عن وحي حقيقي من اللـه وليس عن مجـرد خيال أو إلهام لأن قتـل النفس لا يجـوز بمجـرد الظن، ولـذلك قـال الخضـر: ومـا فعلته عن أمري.. فلم يفعل إلا عن أمر الله الصادق ووحيـه القطعي. ومثـل هـذا الأمر والوحي القطعي قد انقطـع بوفـاة النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فلا وحي بعده، ومن ادعى شيئاً من ذلك فقد كفر لأنه بذلك خالف القرآن الذي يقول اللـه فيه: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول اللـه وخـاتم النبـيين وكـان الله بكل شيء عليماً} (الأحزاب:40).

وقال أيضاً رسول الله صلى الله عليـه وسـلم [وختم بي النـبيون فلا نـبي بعـدي] (رواه مسلم).

من بيان الحقائق السالفة تتضح لنا الصورة الحقيقية لقصة الخضر عليه الســلام، والإعتقاد الواجب فيه حسـب الكتـاب والسـنة. ولكن المتصـوفة جعلـوا من هـذه القصة شيئاً مختلفاً تماماً. فقد زعموا أن الخضر حي إلى أبد الدهر، وأنه صــاحب شريعة وعلم باطني يختلف عن علوم الشريعة الظاهرية، وأنـه وليّ وليس بنـبي، وأن علمه علم لدني موهوب له من الله بغير وحي الأنبياء وأن هذه العلوم تــنزل إلى جميع الأولياء في كل وقت قبل بعثة الرسول محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم وبعد بعثته، وأن هذه العلوم أكبر وأعظم من العلوم التي مع الأنبيـاء، بـل وعلـوم الأنبياء لا تدانيها ولا تضـاهيها، فكمـا أن الخضـر وهـو وليّ فقـط في زعمهم كـان أعلم من موسى فكذلك الأوليـاء من أمـة محمـد هم أعلم من محمـد صـلى اللـه عليه وسلم لأن محمداً عـالم بالشـريعة الظـاهرة فقـط، والـولي عـالم بالحقيقـة الصوفية، وعلماء الحقيقـة أعلم من علمـاء الشـريعة، وزعمـوا كـذلك أن الخضـر يلتقي بالأولياء ويعلمهم هذه الحقائق ويأخـذ لهم العهـود الصـوفية، وأن الحقـائق الصوفية تختلف عن الحقيقة المحمدية ولذلك فلكل ولي شريعته المسـتقلة فمـا يكون معصية في الشـريعة كشـرب الخمـر والزنـا واللـواط، قـد يكـون حقيقـة صوفية وقربة إلى الله حسب العلم البـاطني، وكـذلك في أمـر العقائـد ومسـائل الإيمان فلكل ولي كشفه الخـاص، وعلمـه الخـاص اللـدني الـذي قـد يختلـف عن الوحي النبوي..

وهكذا جعل المتصوفة من قصة الخضر باباً عظيماً لإدخال كل أنواع الخرافات والزندقة والجهل والإسفاف.. بل بلغ الهذيان وحده عندهم حيث يوجد من زعم منهم أن الخضر لا يصلي لأنه على شريعة خاصة!! ومنهم من زعم أن الخضر يصلي ولكن على المذهب الحنفي!!

ولكن صوفياً آخر يزعم أنه رأى الخضر يصلي ولكن على المذهب الشافعي!! بل وأكثر من ذلك زعموا أن الخضر هو الذي يلقنه أذكار الطريقة الإدريسية والسنوسية.

وهكذا أصبح الخضر الصوفي هذا ألعوبة عظيمة، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا في كل مكان في الأرض تقريباً مكاناً زعموا أن الخضر جلس فيه أو رآه صوفي عنده، ولذلك أصبح له في كل أرض من أراضي الإسلام مقام ومزار، تذبح فيه الذبائح، وتقدم فيه القرابين، وينتفع بذلك الكذابون والغشاشون.

باختصار لقد تحول الخضر إلى قصة خرافية كبيرة أشبه بقصة ما يسمونه بالسوبرمان الذي يطير في كل مكان، ويلتقي بالأصدقاء والخلان في كل البلدان، ويشرع للناس ما شاء من عبادات وقربات، ويلقن الأذكار وينشئ الطرق الصوفية، ويعمد الأولياء والأقطاب، ويولي من يشاء، ويعزل من يشاء، وما عليك إذا أردت لقاء الخضر إلا أن تذكر مجموعة من الأذكار فيأتيك الخضر في الحال، ويبشرك بما تشاء من البشارات، ويجعلك ولياً من الأولياء، ويعطيك علوماً لدنية لم يعلمها الرسل أنفسهم ولا خطرت لهم على بال.

ولنذهب معاً في جولة مع الفكر الصوفي وخرافاته حول قصة الخضر:

أول من افترى القصة الصوفية للخضر:

يبدو أن أول من افترى القصة الصوفية للخضر هو محمد بن علي بن الحسن الترمذي المسمى بالحكيم والمتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري -فالترمذي هذا يقول في كتابه ختم الولاية- (وهذا الكتاب بنظري هو أخطر كتاب صوفي على الإطلاق) يقول في جوابه عن علامات الأولياء:

"وللخضر عليه السلام، قصة عجيبة في شأنهم وقد عاين شأنهم في البدء ومن وقت المقادير فأحب أن يدركهم، فأعطي الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة وفي زمرتهم، حتى يكون تبعاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ففاتته وأصابها الخضر، في قصة طويلة.

وهذه آياتهم وعلاماتهم. فأوضح علاماتهم ما ينطقون به من العلم وأصوله.

قال له قائل: وما ذلك العلم؟

قال: علم البدء، وعلم الميثاق، وعلم المقادير، وعلم الحروف.

فهذه أصول الحكمة وهي الحكمة العليا. وإنما يظهر هذا العلم عن كبراء الأولياء، ويقبله عنهم من له حظ من الولاية" (ختم الولاية ص362)

وفي هذا النص يزعم مجرد زعم بلا أدنى دليل أو علم أن الخضر هذا عاين منذ بدء الخليقة أمور الأولياء وعرفهم منذ كتابه المقادير (انظر) وأحب -في زعم الترمذي- أن يدرك هؤلاء الأولياء، فأعطى الحياة حتى يبلغ أمة محمد صلى الله عليه وسلم..

وأمـا هـو أي الخضـر فكـان في قـرن إبـراهيم أي وجـد في زمانـه.. وزمن ذي القرنين.. فانظر هذا الجهل والتخريف والإفتراء.. الذي لا يقوم على أدنى دليل إلا الكـذب والبهتـان.. ثم يسـتطرد في بهتانـه فـيزعم أن ذا القـرنين كـان يحـارب ويسافر ليصل إلى عين الحياة التي من شرب منهـا فلا يمـوت أبـداً فلم يسـتطع الوصول إليها ولكن الخضر وصل إليها.. فانظر هذا الكذب والتخريف.

وهذا بالطبع منقول بعضه من تخريف اليهود وافـتراءاتهم أن آدم لمـا خلقـه اللـه في الجنة أكل من شجرة المعرفة فأصبح كالله يعلم الخير والشر، ثم خـاف اللـه منه أن يأكل من شجرة الحيـاة فيحيـا أبـداً ولا يمـوت فلمـا خـاف اللـه من ذلـك طرده من الجنة من أجل ذلك.. (انظر التوراة الإصحاح الثالث).

ولقد لفق الترمـذي من هـذه القصـص الخرقـاء قصـته عن الخضـر الـتي تلقفهـا الصوفية فيم بعد وزادوا عليها ما شاؤوا. والمهم هنا أنـه زعم كـل هـذه المـزاعم وأن الخضر حي أبداً وأنه قاتل مع ذي القرنين.. ولسنا ندري أين كان مـا دام أنـه حي يرزق إلى آخر الحياة. أين كان عن شهود غزوة بدر وأحد والخندق والمواقع، ولماذا لم يشارك في فتح القادسية واليرموك، ولماذا لم يلتـق بـأبي بكـر وعمـر، ولم يتشرف قبل ذلك برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دام أنه حي أبداً واطلع على جميع الأولياء منذ البدء.. بل ولمـاذا لم يـنزل ولم يلتـق إلا بالكـذابين الضالين أمثال هذا الترمذي الذي لم يتنبأ له إلا امرأتـه الـتي تـنزل عليهـا الـوحي حسب زعمه وبشرته بأنه سيكون من شأنه كذا وكذا إلى أن يكون خـاتم الأوليـاء كما كان محمد خاتم النبيين!!

والترمذي الذي هذا هو شأنه يذكر أيضاً من صفات أوليائه المزعومين أنـه تظهـر علي أيـديهم الآيـات كطي الأرض، والمشـي على المـاء، ومحادثـة الخضـر عليـه السلام الذي زعم أيضاً أن الأرض تطوي له برهـا وبحرهـا، سـهلها وجبلهـا، يبحث عن الأولياء شوقاً إليهم (ختم الولاية ص361).

ومنذ ذلـك الـوقت الـذي افـترى فيـه من افـترى هـذه الفريـة على الخضـر عليـه السلام سواء كان الترمذي نفسه هذا أو هو ناقـل عمن قبلـه.. أقـول سـواء كـان هذا أو هذا فإن المتصوفة بدأوا ينسـحبون الخرافـات حـول قصـة الخضـر وإليـك بعضاً من هذه الخزعبلات والخرافات:

الخضر يصلي على المذهب الشافعي:

من أطرف القصص ما ذكره أحمد الفاروقي السرهندي في كتابه المنتخبـات أنـه رأى الخضر وإلياس عليهما السلام حضرا عنده في حلقة الدرس وأن الخضر قال لـه إنهمـا من عـالم الأرواح وأنهمـا يتشـكلان بمـا شـاءا من الصـور.. وأنـه أي السرهندي هذا سأل الخضر هل تصلون بمذهب الشافعي فقال لـه الخضـر لسـنا مكلفين بالشـرائع!! ولكن لأن قطب الزمـان الشـافعي فنحن نصـلي وراءه على مذهبه الشافعي.. ويعلن السرهندي على ذلك فيقول إن كمالات الولايـة مختصـة بالمذهب الشـافعي، وأمـا كمـالات النبـوة فهي من اختصـاص المـذهب الحنفي!! ولذلك عندما ينزل عيسى بن مريم فإنه يصلي ويعمل بالمـذهب الحنفي!! وإليـك نص أحمد السرهندي في هذه الخرافات قال:

المكتوب الثاني والثمانون والمئتان إلى الملا بديع في بيان ملاقاة الخضر وإلياس عليها السلام وبيان نبذة من أحوالهما

الحمـد للـه وسـلام على عبـاده الـذين اصـطفى قـد مضـت مـدة من استفسـار الأصحاب عن أحوال الخضر على نبينا عليه الصلاة والسلام. ولمـا لم يكن للفقـير اطلاع على أحواله كما ينبغي كنت متوقفـاً في الجـواب فـرأيت اليـوم في حلقـة الصبح أن الإلياس والخضـر عليهمـا السـلام حضـرا في صـورة الروحـانيين فقـال الخضر بالإلقاء الروحاني:

نحن من عالم الأرواح قد أعطى الحق سبحانه أرواحنا قدرة كاملة بحيث تتشـكل وتتمثـل بصـورة الأجسـام ويصـدر عنهـا مـا يصـدر عن الأجسـام من الحركـات والسكنات الجسمانية والطاعات والعبادات الجسدية. فقلت لـه في تلـك الأثنـاء: أنتم تصلون الصلاة بالمذهب الشافعي. فقال نحن لسنا مكلفين بالشـرائع، ولكن لما كانت كفاية مهمات قطب الدار مربوطة بنا وهو على مذهب الإمام الشافعي نصلي نحن أيضاً وراءه بمذهب الإمـام الشـافعي رضـي اللـه عنـه فعلم في ذلـك الـوقت أنـه لا يـترتب الجـزاء على طـاعتهم بـل تصـدر عنهم الطاعـة والعبـادة موافقـة لأهـل الطاعـة ومراعـاة لصـورة العبـادة وعلم أيضـاً أن كمـالات الولايـة موافقـة لفقـه الشـافعي وكمـالات النبـوة موافقـة لفقـه الحنفي فعلم في ذلـك الوقت حقيقة كلام الخواجـة محمـد بارسـا قـدس سـره حيث ذكـر في الفصـول الستة نقلاً أن عيسى عليه وعلى نبينا السلام يعمل بعد نزوله بمذهب الإمـام أبي حنيفة رضي الله عنه رضي الله عنه فوقع في الخاطر في ذلك الوقت أن نستمد بهما وأن نطلب منهما الدعاء فقال إذا كانت عنايـة الحـق سـبحانه شـاملة لحـال الشخص فلا مدخل لنا هناك وكأنهم أخذوا أنفسـهم من الـبين. وأمـا إليـاس على نبينا وعليه الصلاة والسلام فلم يتكلم في ذلك الوقت أصـلاً والسـلام (المنتخبـات من المكتوبات لأحمد الفاروقي ص91 طبع تركيا).

الخضر حنفي وليس شافعياً:

ويبدو أن الكشف السابق لما يسمونه بالعالم الرباني أحمد السرهندي الـذي أراد به التنقص من المذهب الشافعي وعلاء منزلـة المـذهب الحنفي وذلـك أنـه جعـل المذهب الحنفي للأنبياء، والمذهب الشـافعي للأوليـاء.. أقـول يبـدو أنـه لم يطلـع على كشف الشعراني الذي زعم أن الخضر كان حنفياً ولم يكن شافعياً حيث ذكر في كتاب معارج الألباب عن بعض شيوخه أنه ذكر له أن الخضر عليه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم بعد صـلاة الصـبح يتعلم منـه الشـريعة فلما مات (أي أبو حنيفة) سأل الخضر ربه أن يرد روح أبي حنيفة إلى قبره حيث يتم له علم الشريعة وأن الخضر كان يأتي إليـه كـل يـوم على عادتـه يسـمع منـه الشريعة داخل القبر وأقام على ذلك خمس عشرة سنة حتى أكمل علم الشريعة (معارج الألباب ص44).

فانظر أي تخليط وكذب سمج، فهذا الخضر المزعـوم أين هـو من تعلم الشـريعة على يد محمد صلى الله عليـه وسـلم، وهم يزعمـون أنـه كـان حيـاً ذلـك الـوقت ولماذا لم يتتلمذ على الخلفاء الراشدين وهم أعلم الناس بالشـريعة.. ولقـد قـال أبـو حنيفـة نفسـه: دعـوا قـولي لقـول أصـحاب رسـول اللـه فـإنهم كـانوا أعلم بالتنزيل!! فإذا كان أبو حنيفة يأمرنا أن نترك قوله لقول رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم وقـول أصـحابه فكيـف يـترك الخضـر المزعـوم تعلم الشـريعة عن الرسول وأصحابه وينتظر حياً حتى يأتي أبـو حنيفـة ليتعلم منـه الشـريعة.. ثم أي تلميذ بليد هذا الخضر الصوفي المزعوم حتى يمكث مع أبي حنيفة كـل حياتـه ولا يستطيع أن يتعلم علمه.. ويدعو الله أن يظل أبو حنيفة حيـاً في قـبره ليسـتكمل

الدراسة ويستمر في التردد على القبر يومياً لمدة خمس عشرة سنة ليتعلم علم أبو حنيفة فضلاً عن عشرات السنين قبل ذلك!!

ثم كيف يكون الخضر هو ممد الأولياء ومعلمهم وهو بهذه البلادة وقلة الحفظ!!

لقد فات الذين يفترون هـذه القصـص كـل هـذه الأمـور، ولكن لأنهم لم تكن لهم عقول سليمة فإنهم كذبوا مثل هذا الكذب السمج.

ورحم الله الإمام الشافعي القائل: "لا أري أن رجلاً يتصوف أول النهار حتى يكون أحمق في آخره".. وقال: "لا أرى أن رجلاً يصـاحب الصـوفية أربعين يومـاً فيعـود إليه عقله أبداً".

وهؤلاء لا شـك أنهم كـانوا كـذلك حمقى مجـانين ذهبت عقـولهم ولم ترجـع إليهم أبداً.

والعجيب أن مثل هذه الخرافات تظل تسري وتجري فقد زعم الحصفكي الحنفي في مقدمة كتابه الـدر المختـار أن الخضـر أودع أوراق المـذهب الحنفي في نهـر جيحون إلى وقت نزول عيسى عليـه السـلام حـتى إذا نـزل أخـذ هـذه الصـحائف وتعلم منها المذهب الحنفي حتى يحكم به في آخر الزمان!!

الخضر يعلم الأذكار الصوفية:

الخضر الصوفي المزعوم يكاد يكـون في كـل ميـدان من ميـادين التصـوف، فهـو صاحب الكشف وهو نقيب الأولياء، وهو آخذ العهود، وهو مرشد الأنام، وهـو معلم الأذكار. يقول أحمد بن إدريس: "اجتمعت بالنبي صلى الله عليـه وسـلم اجتماعـاً صورياً ومعه الخضر عليه السلام فأمر النبي عليه السلام الخضر أن يلقنني أذكـار الطريقة الشاذلية فلقنني إياها بحضـرته صـلى اللـه عليـه وسـلم" (مفـاتيح كنـوز السماوات والأرض لصالح محمد الجعفري ص8) ويستطرد أيضـاً قـائلاً: "ثم قـال صلى الله عليه وسلم للخضر عليه السلام يـا خضـر لقنـه مـا كـان جامعـاً لسـائر الأذكار والصلوات والاسـتغفار" (مفـاتيح كنـوز السـماوات والأرض لصـالح محمـد الجعفري ص8).

قلت اعلم أن أذكار الطريقة الشاذلية هذه فيها كفر وشـرك فمن أذكارهـا صـلاة ابن مشيش (اللهم انشلني من أوحال التوحيد، وأغرقـني في عين بحـر الوحـدة) وفيها أن محمد صلى الله عليه وسلم هو أصل هذا الوجود وأول مخلوق فيه ومنه انشـقت كـل الأنـوار وظهـرت كـل الموجـودات (اقـرأ البـاب الخـاص بالحقيقـة المحمدية، والباب الخاص بالذكر الصوفي)..

والمهم هنا التنبيه على أن الخضر الصوفي يختلف تماماً عن الخضـر الـذي ذكـره الله في القرآن وقص علينا النبي صلى الله عليه وسـلم قصـته. فـذاك نـبي عبـد موحد مؤمن على علم من علم الله بالوحي عاش ومات لوقته وزمانه وفعـل مـا فعل موافقاً للحق والشريعة أما الخضر الصوفي فهـو مـا رأينـا مصـدراً للخرافـة والجهل والشرك ولذلك أخبر الإمام ابن تيمية بأن الخضر المزعوم هذا لا حقيقـة له شأنه في ذلك شأن الغوث والقطب الصوفي، ومنتظر الرافضة.

الخضر الصوفي خرافة لا حقيقة:

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في رسالة زيارة القبور والاستنجاد بـالمقبور مـا نصه:

"ثلاثة أشياء ما لها من أصل: باب النصيرية، ومنتظر الرافضة، وغوث الجهال، فإن النصيرية تدعي في الباب الذي لهم أنه الذي يقيم العالم فذاك شخصه موجود ولكن دعوى النصيرية فيه باطلة، وأما محمد بن الحسن المنتظر، والغوث المقيم بمكة ونحو هذا فإنه باطل ليس له وجود، وكذلك ما يزعمه بعضهم من أن القطب الغوث الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا فهذا باطل، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله ولا يمدانهم فكيف بهؤلاء الضالين المغترين الكذابين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم إنما عرف الذين لم يكن رآهم من أمته بسيماء الوضوء هو الغرة والتحجيل ومن هؤلاء من أولياء الله لا يحصيه إلا الله عز وجل وأنبياء الله الذي هو إمامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم بل قال الله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} وموسى لم يكن يعرف الخضر، والخضر لم يكن يعرف موسى بل لما سلم عليه موسى قال له الخضر: وإني بأرضك السّلام، فقال له: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، وقد كان بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ومن قال أنه نقيب الأولياء أو أنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل. والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت وأنه لم يدرك الإسلام ولو كان موجوداً، في زمان النبي صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ولكان يكون في مكة والمدينة ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم وإعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرفع لهم سفينتهم ولم يكن مختفياً عن خير أمة أخرجت للناس وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم ثم ليس للمسلمين به وأمثاله حاجة في دينهم ودنياهم، فإن دينهم أخذوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي علمهم الكتاب والحكمة وقال لهم نبيهم [لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم] وعيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل من السماء إنما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم فأي حاجة لهم مع هذا إلى الخضر وغيره والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول عيسى عليه السلام من السماء وحضوره مع المسلمين وقال [كيف تهلك أمة أنا أولها وعيسى في آخرها] فإذا كان النبيان الكريمان اللذان هما مع إبراهيم وموسى ونوح أفضل الرسل ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الأمة لا عوامهم ولا خواصهم فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم وإذا كان الخضر حياً دائماً فكيف لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقط، ولا خلفاؤه الراشدين؟!!

وقول قائل إنه نقيب الأولياء، فيقال له، من ولاه النقابة وأفضل الأولياء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وليس فيهم الخضر، وغاية ما يحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب وبعضها مبني على ظن رجال مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر، وقال إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصاً تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك. وروي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال وقد ذكر له الخضر من أحالك على غائب فما أنصفك، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان. انتهى المراد منه.

الفصل التاسع

الكشف الصوفي

الإيمان بالغيب في الكتاب والسنة:

من أصـول الـدين وقواعـد الإيمـان أن تعتقـد أن الغيب علمـه للـه تعـالى وحـده سبحانه وتعالى وأنه يطلع وسبحانه تعـالى على مـا شـاء من الغيب من شـاء من أنبيائه ورسله فقط وأن الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلا ما أعلمهم اللـه إيـاه كمـا قال سبحانه وتعالى لرسوله: {قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا مـا شـاء اللـه ولـو كنت أعلم الغيب لاسـتكثرت من الخـير ومـا مسـني السـوء إن أنـا إلا نـذير وبشير لقوم يؤمنون} (الأعراف:188).

وقـال جـل وعلا: {عـالم الغيب فلا يظهـر على غيبـه أحـداً* إلا من ارتضـى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفـه رصـداً* ليعلم أن قـد أبلغـوا رسـالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً} (الجن:26-28).

وأمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أنه ليس ملكاً ولا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب قال تعالى: {قـل لا أقـول لكم عنـدي خـزائن اللـه ولا أعلم الغيب ولا أقـول لكم إني ملـك إن أتبـع إلا مـا يـوحى إلي قـل هـل يسـتوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون} (الأعراف).

وهذا الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم هو مـا قالـه نـوح قبـل ذلـك. قـال تعالى على لسان نوح: {ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خـيراً اللـه أعلم بمـا في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين} (هود).

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي اللـه عنهمـا عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم قال: [مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تـدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله]. وهـذا الحـديث يقرر قوله تعالى: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما في الأرحـام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تـدري نفس بـأي أرض تمـوت إن اللـه عليم خبير} (لقمان).

وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كـذب وهـو يقـول: {لا تدركـه الأبصـار} ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب وهـو يقـول {قـل لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا الله}.

فهذه الآيات والأحاديث ومثلها كثـير جـداً قـاطع بأنـه لا يعلم أحـد في السـماوات والأرض الغيب إلا الله لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وأنه لا يعلم أحد من هـؤلاء الغيب إلا ما أطلعه الله سبحانه عليه، فهاهم الملائكة يخلق اللـه آدم ولا يعلمـون الحكمة من خلقه، ويعرض الله عليهم مسميات معينة ويقول لهم أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، فيقولون سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنـك أنت العليم الحكيم، ويعلم الله آدم النبي الأسماء فيعلمها لهم، وآدم نبي مكلم كمـا جـاء في الحديث الشريف، وهؤلاء الأنبياء لا يعلمون الغيب بنص القرآن وبمئات بل بـآلاف الوقائع، فنوح لم يعلم أن ابنه ليس من أهله وأن زوجته على غير دينه، وإبـراهيم لم يعلم بأنه يولد له ولد من زوجته سارة إلا بعد أن جاءتـه الملائكـة ولقـد جاءتـه الملائكة في صورة بشر فذبح لهم عجلاً وقربـه إليهم وهـو لا يعلم حقيقتهم حـتى أعلموه، ولم يكن يعرف مقصدهم حتى أعلموه أنهم ذاهبون لتـدمير قـرى لـوط، وأما لوط فإنه ساءته رؤية الملائكة علماً أنهم قد أتـوا لإنجائـه وإنجـاء أهلـه، ولم يعلم حقيقة أمرهم إلا بعـد أن علمـوه ولم يكن لـه كشـف خـاص، ولا علم خـاص

يستطيع أن يعرف من القوم، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد حدث له مئات بل آلاف الوقائع التي تدل يقيناً أنه لم يكن يعلم في الغيب إلا ما أعلمه الله إياه.. فقد ظن أن جبريل الذي أتاه في الغار شيطان وقال لخديجة لقد خفت على نفسي، ولم يعرف أنه الملك حتى أتى ورقة بن نوفل فأخبره أن الكلام الذي جاء به يشبه الكلام الذي نزل على الأنبياء من قبله.. ولم يدر بخلد النبي أنه سيؤذى ويخرج من مكة أبداً علماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد مكث يتعبد في غار حراء سنوات طويلة، وعند الصوفية أن من لف رأسه بخرقه وجلس في مكان مظلم رأى الله، وعرف كل شيء وشاهد الكون أعلاه وأسفله.. بل النبي محمد صلى الله عليه وسلم مكث ثلاث عشرة سنة في مكة لا يعلم أين سيهاجر بعد ذلك، وبعد الهجرة خرج إلى أبي سفيان ففاته واصطدم بجيش المشركين وجاءه المشركون في المدينة المرة تلو المرة يزعمون أنهم قد آمنوا ويطلبون منه أن يرسل لهم من يعلمهم القرآن فكان يرسل معهم خيرة القراء، فيغدرون بهم في الطريق.. فغدر المشركون بأربعين رجلاً من المسلمين مرة واحدة، وسبعة مرة، ولو علم رسول الله ما يكون من أمر الله بل لو علم أن هؤلاء الكفرة الأعراب يكذبون عليه لما أسلم لهم أصحابه وحبس المشركون يوماً وليلة في مكان ليس فيه ماء لأن السيدة عائشة رضي الله عنها قد فقدت عقداً لها ولو كان هناك كشف صوفي على ما يصوره الصوفية ويزعمونه لعلموا أين عقد السيدة عائشة الذي كان تحت بعيرها ولم يفطن إليه أحد من المسلمين من أصحاب النبي.. ورمى المنافقون السيدة عائشة بالزنا -شرفها الله وحماها وبرأها ولعن الله من سبها- .. ومكث رسول الله شهراً كاملاً لا يدري ما يقول، وكان يستفتي أصحابه ويسأل علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، وبريرة خادمته ومولاته هل رأوا على عائشة شيئاً.. ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم حقيقة الأمر حتى أنزل الله براءتها من السماء.. هذا إلى العشرات والمئات من الوقائع التي تبين أن رسول الله وأكرم خلق الله من البشر على الله لم يكن يطلع على شيء من الغيب إلا ما أطلعه الله بحكم النبوة..

الغيب في المعتقد الصوفي:

ولكن الصوفية منذ القدم.. منذ نشأتهم في الإسلام وإلى يومنا هذا عمدوا إلى هذا الأصل الأصيل من أصول الدين فهدموا بل اقتلعوا جذوره من قلوب من يسير في طريقهم وينتهج منهجهم هذا الأصل فهدموه جعله الله أول صفة في كتابه للمتقين حيث يقول تبارك وتعالى في سورة البقرة الثانية في القرآن بعد الفاتحة: {الم* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب} الآية.

جعل الله صفة الإيمان بالغيب أول صفة للمتقين المهتدين بالقرآن والسنة وذلك حتى يوحد المؤمنون طريق التلقي فلا يتلقون غيباً إلا من الله ومن أقامه للأخبار بالغيب عنه وهم رسله، وأنبياؤه فقط، جاء المتصوفة فكان أول هدم لهم في الإسلام أن يهدموا هذا الأصل فأقاموا شيئاً سموه (الكشف الصوفي) وهو يعني عندهم رفع الحجب أمام قلب الصوفي وبصره ليعلم ما في السماوات جميعاً، وما في الأرض جميعاً، فلا تسقط ورقة إلا بنظره ولا تقع قطرة ماء من السماء إلا بعلمه ولا يولد مولود، أو يعقد معقود، أو يتحرك ساكن أو يسكن متحرك إلا بعلم الصوفي.. هكذا والله؛ وسيرى القارئ في هذا الفصل النقول من كتب القوم كلها تنص على أن الصوفي لا يقف أمامه حجاب، ولا يوصد أمامه باب، ولا يعجزه علم شيء في الأرض ولا في السماء. فهو يعلم ما يكتب في اللوح

المحفوظ ساعة بساعة، بـل هـو يعلم بـأي لغـة وأي قلم كتب اللـوح المحفـوظ، وماذا في أم الكتاب، وماذا كان منذ الأزل ومـاذا سـيكون إلى الأبـد، لا أقـول قـد ساوى الصوفية أنفسهم بالأنبياء بالغيب أو ساووا أنفسهم بالخضر الذي يزعمـون النقل عنه لا والله بل جعلـوا كـل زنـديق منهم ممن لا وزن لـه في خلـق ولا علم جعلوا هؤلاء هم الله علماً بكل شيء، وإحاطة بما في السماوات والأرض..

وسيرى القارئ أن أي زندقـة وأي كفـر في الأرض لم يجـرؤ كـاتبوه ومؤيـدوه أن يكتبوا مثل هذا ولكن الصوفية سبقوا كل الكفار في كل الملـل والنحـل والأقـوام وكتبوا بأقلامهم ما لم يجرؤ أحد بتاتاً أن يكتبه أو يسطره فيما علمناه من الكفـرة والزنادقة والملاحدة..

لقد ترقى المتصوفة في قضية الكشف عندهم فزعموا أولاً أن الصـوفي يكشـف له معان في القرآن والحـديث لا يعلمهـا علمـاء الشـريعة الـذين سـموهم بعلمـاء الظـاهر والقـراطيس والآثـار الـتي ينقلونهـا عن المـوتى..، وأمـا هم فيلتقـون بالرسول صلى الله عليه وسلم يقظة أحياناً، ومناماً أحياناً ويسـألونه ويسـتفيدون منه هذه العلوم ثم ترقوا فقالوا إن لنا علوماً ليست في الكتـاب والسـنة نأخـذها عن الخضر الذي هو على شريعة الباطن وهو الذي يمـد الأوليـاء بهـذه الشـريعة، فموسى ومحمـد والأنبيـاء على شـريعة ظـاهرة، وأمـا الخضـر فهـو على شـريعة باطنـة يجـوز فيهـا مـا لا يجـوز في الظـاهر، فقـد قتـل الغلام بغـير ذنب، وكسـر السفينة لمن حملهم بغير نوال، وبنى الجدار إحساناً منه لمن أساء إليهم.. ومثـل هذا ينكره أهل الظاهر كما أنكره موسى، ونحن في الباطن على شـريعة الخضـر وهو يلتقي بنا ونتعلم منه علوماً خاصة ينكرها أهل الظاهر لجهلهم.. والعجيب أنـه كان من هذا الدين الباطن الذي زعموا أخذه عن الخضر إتيان (الحمـارة) والزنـا، وشـرب الخمـر واللـواط، والتعـري، والصـراخ في الطرقـات، وسـب المـؤذنين للصلاة، وسب الأنبياء والإدعاء بأن كل مخلوق هو الله وإلقاء السلام على الكلاب والخنـازير، والـترحم على إبليس ومحاولـة الوصـول إلى مقامـه، وجعـل فرعـون أعلم من موسى بالله وتبرئة قوم نوح من الشرك، وجعل الرسول محمد هو الله المستوي على العرش.. هذه الأشياء قليلة جداً من هذا الدين الباطني الذي زعم المتصوفة أنهم نالوه عن طريق الكشف الصوفي، وهو رفـع الحجب عن القلـوب والأبصار لرؤية الحق على ما هو عليه، وأن الخضر عليه السلام هو مبلغ كـل هـذا لهم، وتارة يترقون في هـذا الكـذب أو بـالأحرى يهـوون إلى أسـفل سـافلين في دعاوي الكذب هذه فيزعمون أنهم تلقوا هذه العلـوم من ملـك الإلهـام كمـا تلقى محمد صلى الله عليه وسلم علومه من ملك الوحي، وأخرى يزعمـون أنهم تلقـوا علومهم هذه التي أشرنا إلى بعضها آنفاً من الله رأساً وبلا وساطة وأنهـا انطبعت في نفوسهم من الله رأساً وأنهم مطالعون الأمر في الأزل بأرواحهم، والأمـر في الأبد يرونه كما يكون عليه الحال يرونه كذلك بأرواحهم بغـير وسـاطة وأن همتهم تصل السماوات وما فوقها والأرض وما تحتها..

ولقد وسع المتصوفة دائرة كشفهم هـذه فزعمـوا أنهم يعلمـون أسـرار الحـروف المقطعـة من القـرآن بطريـق الكشـف، وقصـص الأنبيـاء يروونهـا على حقيقتهـا ويجتمعون بالأنبياء ويسـألونهم عن تفاصـيل قصصـهم ومـا كـان منهم.. فيفيـدون فوائد كثيرة دونها كثيراً ما هـو موجـود فعلاً في القـرآن، وأمـا الجنـة والنـار، فهم وإياها دائماً رأي العين، بل هي ساقطة أصلاً من عيونهم لأن النـار ومـا النـار، لـو بصق أحدهم عليها لأطفأها كما قال أبـو يزيـد وغـيره منهم.. وأمـا الجنـة فـالنظر إليها شرك وكفر لأنهم ينظرون إلى الله فقط..

ولذلك قال قائلهم معيباً على الصحابة عندما قـرأ {منكم من يريـد الـدنيا، ومنكم من يريد الآخرة} قال.. أف.. أليس منكم أحـد يريـد اللـه.. وقـال آخـر عن قولـه تعالى: {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون} قال.. ألهاهم عنه..

باختصار لقد اكتشف المتصوفة بزعمهم للقرآن معاني غير التي يعرفهـا أصـحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعلماء الأمة على مر العصور. لقـد اكتشـفوا هم عن طريق كشفهم الشيطاني أن للقرآن معاني أخرى وأن فيـه علومـاً كثـيرة جـداً لا يعلمهـا غـيرهم.. ومـا هـذه العلـوم.. إنهـا كـل الفلسـفات القديمـة، والخـزعبلات والخرافـات الـتي عنـد فلاسـفة الإغريـق، وكهنـة الهنـادك والهنـدوس، وشـياطين المجوس وإباحية المانوية والمزدكية، وخرافات القصاص من كل لون وجنس كل هذا وهذا جعله المتصوفة كشفاً وحقيقة صوفية ومعاني للقرآن الكـريم ولحـديث النبي الشريف..

ومن أراد منهم أن لا ينسب هـذه الخرافـات والخـزعبلات إلى القـرآن والحـديث، ورأى أنه تحقق بعلوم أكثر بكثير مما فيهما قال:

خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله.. فجعل نفسه أعظم معرفـة وتحقيقـاً ممـا لـدى الأنبياء.. وذلك لما رأى أنه قد جمع من الخرافـات والخـزعبلات والأسـاطير شـيئاً نهى الرسل الصـادقون عن افترائـه وتناقلـه وتداولـه.. هـذه هي حقيقـة الكشـف الصوفي الذي زعم أصحابه أنه ثمرة العبـادة والتقـوى والاتصـال باللـه والملائكـة والأنبياء والخضر، وأنه نتيجة حتمية لسباحة أرواحهم في الأزل والأبد، والسماوات السـبع ومـا فوقهـا والأراضـين السـبع ومـا تحتهـا.. لقـد أتونـا بعـد هـذه السـياحة الشيطانية بعشرات المجلدات والخرافات والخزعبلات بعد أن لبسـوها وخلطوهـا ببعض العلم الذي جاء به الرسل فخلطوا الأمر على عامة المسلمين، وأضلوا من لا علم لهم بالكتاب والسنة، وظنوا فعلاً أن هـؤلاء النـاس صـالحون وأن علـومهم هذه قـد أتـوا بهـا فعلاً من الغيب، وخاصـة أنهم رأوهم أحيانـاً تجـري على أيـديهم بعض الحيل الشيطانية، وبعض الكرامات الإبليسية من خـرق العـادات أو الإخبـار ببعض المغيبات ما هو عند الهندوس والمجوس والدجال وابن صياد أمثالـه وأكـثر منه مئات المرات، لقد أوهم العامة ما جـرى على يـد هـؤلاء من هـذه الكرامـات الإبليسـية الـتي هي حقـاً أمثـال شـيطانية من مـا يجـري للكفـار والمنـافقين والدجالين، فظنوا أن هؤلاء من أهل الله حقاً، وأن الحجب ترتفع عنهم صدقاً وأن علـومهم هـذه آتيـة من الغيب يقينـاً وبـذلك راجت يومـاً بضـاعة هـؤلاء الزنادقـة وصرفوا المسلمين عن دينهم الحق وعقيدتهم المستقيمة.

وها نحن نورد بعد هذه المقدمة التي لا بد منها طائفة من النقول من كتب القـوم المعتمدة التي تبين هذا الباطل الذي يدعونـه ويسـمونه كشـفاً، وحقيقـة، وعلمـاً لدنياً، وتحققاً واطلاعاً ليكون القارئ المسلم على بينه مما عليه هؤلاء الزنادقة.

عبدالكريم الجيلي وكتابه الإنسان الكامل:

هذا عبدالكريم الجيلي يكتب كتابـه (الإنسـان الكامـل) زاعمـاً أيضـاً أنـه من اللـه أخذه، وأن الله أمره بإخراج هذا الكتاب للناس وأنه ليس فيه شيء إلا وهو مؤيـد بالكتاب والسنة يقول:

".. ثم ألتمس من الناظر في هذا الكتاب بعد أن أعلمه أني ما وضـعت شـيئاً في هذا الكتاب إلا وهو مؤيد بكتاب الله أو سنة رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم، أنه إذا لاح له شـيء في كلامي بخلاف الكتـاب والسـنة فليعلم أن ذلـك من حيث مفهومه لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله فليتوقف عن العمل به مـع

التسليم إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفته، ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه.

وفائدة التسليم هنا وترك الإنكار أن لا يحرم الوصول إلى معرفة ذلك، فإن من أنكر شيئاً من علمنا هذا حرم الوصول إليه ما دام منكراً، ولا سبيل إلى غير ذلك، بل ويخشى عليه حرمان الوصول إلى ذلك مطلقاً بالإنكار أول وهلة، ولا طريق له إلا الإيمان والتسليم.

واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده، فقد يكون العلم في نفسه مؤيداً بالكتاب والسنة، ولكن قلة استعدادك منعتك من فهمه فلن تستطيع أن تتناوله له بهمتك من محله فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة، فالطريق في هذا التسليم وعدم العمل به من غير إنكار إلى أن يأخذ الله بيدك إليه" (الإنسان الكامل ص8).

علماً بأنه لم يضع فيه شيئاً مطلقاً وافق الكتاب والسنة، بل جمع فيه من الكفر والزندقة أعظم من كل كفر الأولين والآخرين كيف لا وقد جعل كل من عبد شيئاً في الأرض فما عبد إلا الله. بل زعم أنه ليس في الوجود إلا الله، الذي خلق الوجود من نفسه لنفسه فليس هناك إلا هو فهو الرب والعبد، والشيطان والراهب،والسماء والأرض، والظلمات والنور، والحمل الوديع والذئب الكاسر..

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً واستغفر الله من تسطير ذلك وكتابته.. اللهم رحماك رحماك.. لقد قلت في كتابك عن الذين ادعوا الألوهية في عيسى وهو نبي كريم ونفس طيبة {كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً} وقلت أيضاً {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا* إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً}.. وهذا الزنديق يا ربي وأمثاله جعلوا كل كلب وخنزير في الأرض، وكل شيطان وإبليس وكل كافر وفاجر جزءاً منك، ومظهراً لك (ومجلى) -حسب عبارتهم- من مجاليك وتجلياتك ثم أنت ترزقهم وتعافيهم وتحلم عليهم سبحانك ما أحلمك وأجلك وأعظمك. لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك. ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

نعود إلى الجيلي وكتابه الذي يقول فيه بالنص:

"وكنت قد أسميت الكتاب على الكشف الصريح وأيدت مسائله بالخبر الصحيح (..إنظر) وسميته بالإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" ثم يقول: "فأمرني الحق الآن بإبرازه بين تصريحه وإلغازه، ووعدني بعموم الانتفاع فقلت طوعاً للأمر المطاع، وابتدأت في تأليفه متكلاً على الحق في تعريفه، فها أنا ذا أكرع من دنه (الدن: هو وعاء الخمر الذي يخمر فيه) القديم، بكأس الاسم العليم، في قوابل أهل الإيمان والتسليم خمرة مرضعة من الحي الكريم، مسكرة الموجود بالقديم) أ.هـ (ص6).

ما الذي يتكلم عليه الجيلي في هذا الكتاب:

إن كتابه من أوله وآخره يدور حول معنى واحد وهو وصف الله بصفات مخلوقاته، وبيان أن المخلوق هو عين الخالق.. هذا كل ما يريد الجيلي أن يصل إليه وهذا هو ما شرحه شرحاً كاملاً في كتابه، وأضاف أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل والإله الكامل الذي اتصف بكل صفات الله بعلوها وسفلها، بحلوها ومرها؛ فقل هو الله أحد معناها كما يفسرها الجيلي: قل يا

محمد الإنسان هو الله أحد. فهاء الإشارة في (هو) راجع إلى فاعل قل وهو أنت.. فيكون المعني يا محمد هو أي أنت الله أحد.. هذا هو الكشف الذي كشفه لنا الجيلي من الغيب وهذا هو الكتاب الذي ليس فيه شيء يخالف الكتاب والسنة.

وهذا نص عبارة الجيلي في ذلك:..

"الحرف الخامس من هذا الاسم: هو الهاء، فهو إشارة إلى هوية الحق الذي هو عين الإنسان قال الله تعالى (قل) يا محمد (هو) أي الإنسان (الله أحد) فهاء الإشارة في هو راجع إلى فاعل قل وهو أنت، وإلا فلا يجوز إعادة الضمير إلى غير مذكور أقيم المخاطب هنا مقام الغائب التفاتاً بيانياً إشارة إلى أن المخاطب بهذا ليس نفس الحاضر وحده، بل الغائب والحاضر في هذا على السواء.

قال الله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا) ليس المراد به محمداً وحده بل كل راء، فاستدارة رأس الهاء إشارة إلى دوران رحى الوجود الحقي والخلقي على الإنسان، فهو في عالم المثال كالدائرة التي أشارت الهاء إليها، فقل ما شئت إن شئت قلت الدائرة حق وجوفها خلق، وإن شئت قلت الدائرة خلق وجوفها حق فهو حق وهو خلق، وإن شئت قلب الأمر فيه بالإلهام، فالأمر في الإنسان دوري بين أنه مخلوق له ذل العبودية والعجز وبين أنه على صورة الرحمن، فله الكمال والعز.

قال الله تعالى (والله هو الولي) يعني الإنسان الكامل الذي قال فيه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأنه يستحيل الخوف والحزن وأمثال ذلك على الله لأن الله هو الولي الحميد (وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) أي الولي، فهو حق منصور في صورة خلقية، أو خلق متحقق بمعاني الإلهية، فعلى كل حال وتقدير وفي كل مقال وتقرير هو الجامع لوصفي النقص والكمال، والساطع في أرض كونه بنور شمس المتعال، فهو السماء والأرض، وهو الطول والعرض، وفي هذا المعنى قلت:

لي الملك في الدارين لم أرى فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه

ولا قبل من قبلي فالحق شأنه ولا بعد من بعدي فأسبق معناه

وقد حزت أنواع الكمال وإنني جمال جلال الكل ما أنا إلا هو

فمهما ترى من معدن ونباته وحيوانه مع أنه وسجاياه

ومهما ترى من عنصر وطبيعة ومن هباء الأصل طيب هيولاه

ومهما ترى من أبحر وقفاره ومن شجر أو شاهق طال أعلاه

ومهما ترى من صورة معنوية ومن شهد للعين طال محياه

إلى أن يقول:

فإني ذلـك الكـل والكـل مشـهدي أنـا المتجلي في حقيقته لا هو" (ص31)

ويشرح الجيلي هذا المعنى المجمل تفصيلياً في الباب السـتين من كتابـه فيقـول بالنص:

الباب الملفى ستين: في الإنسان الكامل وأنه محمد صلى الله عليه وسـلم وأنـه مقابل للحق والخلق.

"اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليـه أفلاك الوجـود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجـود إلى أبـد الآبـدين، ثم لـه تنـوع في ملابس ويظهر في كنائس (الكنيسة مكان العبادة عند النصارى. والمعنى المشـار إليه هنا أنه يوصف بالشـيء ونقيضـه كمـا قـال فريـد الـدين العطـار: ومـا الكلب والخنزير إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة) فيسـمى بـه باعتبـار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيتـه أبو القاسم، ووصفه عبدالله، ولقبـه شـمس الـدين، ثم لـه باعتبـار ملابس أخـرى أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمـان، فقـد اجتمعت بـه صلى الله عليـه وسـلم وهـو في صـورة شـيخي الشـيخ شـرف الـدين اسـماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنه النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وكنت أعلم أنـه الشـيخ، وهذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة وسر هذا الأمر تمكنه صلى الله عليه وسلم من التصـور بكـل صـورة، فـالأديب إذا رآه في الصورة المحمدية التي كـان عليهـا في حياتـه فإنـه يسـميه باسـمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة، ثم لا يوقـع ذلك الاسم الأعلى الحقيقة المحمدية.

ألا تراه صلى الله عليه وسلم لما ظهر في صورة الشـبلي رضـي اللـه عنـه قـال الشبلي لتلميذه أشهد أني رسول الله وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه، فقـال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر غير منكور وهو كما يـرى النـائم فلان في صـورة فلان. وأقل مراتب الكشف أن يسـوغ بـه في اليقظـة مـا يسـوغ بـه اليقظـة مـا يسوغ به في النوم، ولكن بين النوم والكشف فرقـاً وهـو أن الصـورة الـتي يـرى فيها محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم في النـوم لا يوقـع اسـمها في اليقظـة على الحقيقة المحمدية، لأن عالـم المثال يقع التعبير فيه فيعبر عن الحقيقة المحمدية إلى حقيقة تلك